٧٠

بلا عنوان

مجلة
روايات أحلام

السيف بيننا

www.liilas.com

السيف بيننا

عندما تتحول الثروة إلى لعنة على صاحبها ، وعندما تصبح الشهرة باباً إلى الجحيم ، فهل يعود هناك من مجال لنتحكم بمصيرنا؟

نادين الفتاة الثرية المدللة تواعدت مع قدرها : كان رجلاً طويلاً ساحراً كحلم ، وغرقت نادين في غموض عينيه منذ النظرة الأولى ، دون أن تتروى . . . ولم تدرك أن ما تخفيه عيناه ليس مشاعر هو ، وإنما وعود الموت ، الموت لها . . .

عندما عرفت نادين اللعبة كان قد فات الأوان ، فقد أصبحت رهينة بين يدي خاطفين قساة لا يعرفون الرحمة ، ولم يبق لها إلا انتظار الموت . . . على يد من تحب !

١ ـ لا حواجز بيننا

بقيا فترة طويلة وكأنهما غريبان وذلك منذ موت والدة نادين تقريباً. وقتذاك كانت تلميذة في الثانية عشرة، وكان والدها الكثير الأشغال في الأربعين من العمر. أما الآن فقد تجاوزا المحنة بأعجوبة ووجدا طريق العودة إلى بعضهما بعضاً وها كل منهما معتزّ بالعلاقة الجديدة.

ـ نادين، عزيزتي، أنت رائعة كأمك!

وجدت وراء الفخر في نبرة صوت والدها ألماً وفهمت سببه. دارت حول نفسها فرفرفت تنورة فستانها الرقيقة حول قدّها الرشيق.

ـ أيعجبك؟

كان الفستان باهظ الثمن، اشترته في لندن، خصيصاً لهذه المناسبة المعدّة سلفاً لإعلان بدء العطلة التي طالما انتظراها. ولكن وبما أن السير برادلي يترأس مؤسسة كلايتون الصناعية فوقته ليس ملكه وعشية سفرهما إلى روما كان عليه أن يخبر نادين بأنه سيتأخر بضعة أيام قبل أن يتمكن من الانضمام إليها في فيلتهما الواقعة في جنوبي إيطاليا.

وأكد لها السير برادلي:

ـ بكل تأكيد، خاصة بعدما استلمت الفاتورة!

راح يتأمل التغيير الذي طرأ عليها مفكراً. من مراهقة متمردة إلى سيدة شابة صغيرة لقد حدث هذا بين ليلة وضحاها تقريباً. كان فخوراً

بابنته كثيراً فهي ابنته الوحيدة التي أوشك أن يفقدها بسبب المرارة التي عانيا منها بعد وفاة زوجته. . وكان قد نسي أن نادين فقدت هي أيضاً أمها. . وعاد إحساسه بالذنب يظهر من نظرته القلقة التي يرمقها بها. .

أضاف:

ـ أنا آسف بالنسبة للعطلة ولكن إن كنت محظوظاً لن أمكث في سان فرانسيسكو مدة طويلة، أنت على الأقل ستتمتعين هذه الليلة، السنيور ميدسيني دعا معظم مجتمع روما الراقي إلى هذه الحفلة.

علقت نادين بخبث:

ـ هذا ليؤثر فيك حتى تستثمر أموالك في أعماله.

جعلتها البشرة الذهبية الدافئة والشعر الأصهب اللذان ورثتهما عن أمها إضافة إلى رشاقة قدّها الذي تحسدها عليه أرقى العارضات تصبح المفضلة لدى المصورين طوال حياتها المراهقة، هذا عدا ذكر الوجه المنحوت الذي يشبه تمثال فينوس. فكر برادلي كلايتون بينه وبين نفسه وهو يراقبها: ليس غريباً ألا تفتقر إلى صحبة الرجال!

جعلها الفستان الذي اختارته لحفلة الليلة، تبدو هشة رقيقة بريئة المظهر، وكأنها حورية من حوريات البحر. عندما زاد تغضن جبينه بعبوس مؤقت ابتسمت نادين تشجعه، وقالت هامسة وهي تتأبط ذراعه وتفتح باب غرفتها في الفندق:

ـ لا تقلق فلن أخذلك، ولن أعبث طوال السهرة لأنك لن تستطيع مرافقتي، فقد ولّت تلك الأيام.

ـ وما كان يجب أن تكون لولا انشغالي الدائم بأعمالي.

اجتاح بعض الضباب عينيها الخضراوين لأنها تذكرت سنوات مراهقتها غير الممتعة، والألم الذي شعرت به لفقدانها والدتها.

قاطعته قائلة: «اتفقنا على عدم التفكير في الماضي».

كانت سيارة ليموزين فاخرة بانتظارهما لتقلهما إلى فيلا ميدسيني

الفاخرة الواقعة في إحدى ضواحي روما الثرية. وكانت نادين قد تفوهت بالحقيقة عندما قالت إن السنيور ميدسيني يأمل أن يقنع أباها باستثمار أموال في شركته، لكن المشهور أن كلايتون ذي سمعة مهيبة وأنه رجل أعمال داهية، وتعرف نادين تمام المعرفة أن هناك حاجة لأكثر من حفلة اجتماعية لإقناعه.

فيما كانا يمران بسرعة في المدينة نظرت إلى وجه أبيها.. لقد قام بكل ما في وسعه.. وأمّن لها سلسلة مستمرة من مدرّسات ومدبرات منزل ليكنّ بديلات عن أمها ولكن ما قام به لم يكن كافياً، وحتى تدفع أباها ليراها ويلاحظ وجودها، راحت تزج نفسها بمأزق تلو الآخر ولم تهجر نمط الحياة الذي سارت فيه بعدما تركت المدرسة إلا في السنة الماضية التي بلغت فيها العشرين فأصبحت فتاة ناضجة. لقد كانت ابنة رجال عصاميين لديهم من المال أكثر من الوقت لصرفه على أبنائهم.. رجال هم أيضاً ابتعدوا عن آبائهم أثناء سعيهم لتلقي العلم في المدارس العامة التي تفاخر الآباء بتأمينها لهم.

متى سيتعلم الأهل أن الأولاد يحتاجون إلى الحب، لا إلى المال؟ لم يكن سبب ثورتها هو رغبتها في مشاركة أبناء جيلها خبرتهم بل كان السبب هو جذب اهتمام أبيها إليها ولكن موت أحد أقرانها بسبب إدمانه على المخدرات صدمها وأرجعها إلى واقعها فأدركت الهوة التي تسير إليها وكان ذاك الحدث الدافع الذي جعلها تحاول التقرب من والدها للمرة الأخيرة وحدثت المعجزة واستجاب لها.

في السنة الماضية هجرت التجول البائس وعطل الأسبوع الصاخبة وحفلاتها الهازجة واستعاضت عن ذاك اللهو بالانشغال بالجانب الاجتماعي في أعمال أبيها، فشركاته مشهورة باهتمامها بالموظفين.. وقد أصبحت بتشجيع من أبيها متورطة في قسم منظم جديد يهتم باتخاذ الخطوة التالية الإضافية، لمساعدة الآباء والأمهات المسؤولين عن

عائلات فقدت عمادها الآخر. وغرقت نادين في هذا العمل الذي دفع حياتها السابقة إلى التلاشي.

كانت تعلم أن أباها مسرور. وإن كانت تخرج في هذه الأيام، فإنما لتشارك بعشاءٍ أو بحفل راقص في ناد ليلي راقٍ وهذه الأماكن التي ترتادها الآن هي عكس ما كانت ترتاده سابقاً. العديد من أصدقاء الماضي سخروا منها.. بل أن الكثير من الشبان هزئوا بها وذكروها كيف كانت في السابق روح كل احتفال ومغامرة.

ولكن هذا، كان قبل أن تدرك المأزق الذي يسيرون جميعاً إليه.. كانت الجماعة التي تعاشرها تعتبر الإدمان على كافة أنواع المخدرات حنكة، مع أن نادين كانت تجبر نفسها دائماً على الابتعاد عن التجربة، ليس لاعتراض خلقي، إنما لأنها كانت ترى بأم عينها تأثير هذا في الآخرين، وهي تكره أن تفقد السيطرة على نفسها.. وهو أمر كانت تخشى حدوثه لها.. وربما كان هذا هو السبب المباشر لعدم تورطها الجدي مع أحد الشبان الذين كانت تخرج برفقتهم. لم يكن بينهم أحد يعرف أنها ما تزال عذراء، بل كان كل واحد منهم يعتقد أنه الوحيد الذي ترفض أن تقيم معه علاقة وطيدة، وهذا اعتقاد شجعت على أن يعرفه الجميع، لأنها تعلم أن فيه سلامة لها، فالأفضل أن تنعت بالفشل على أن يعرف الجميع بطهارتها. وحتى والدها لم يكن يعرف أن الشائعات والقصص التي دارت حولها إنما هي مجرد شائعات وكانت تشعر بالخجل من ذكر الموضوع أمامه.. ولكنها الآن تتساءل عما إذا كان قد بدأ يدرك الحقيقة بنفسه.. فقد كان في نظرته إليها نوع غريب من التسلية والسرور عندما خرجت من التاكسي في نهاية الأسبوع الماضي أمام منزلهما في لندن وهي تبعد نفسها ببراعة عن ذراعي ابن أحد الدبلوماسيين الفرنسيين الماهر في حقل الغزل وفنونه.. خاصة وأن فرانسوا يُعتبر صيداً ثميناً في الدوائر التي تدور فيها.. ولكن السير

برادلي انتقد الشاب الفرنسي بشدة:

- إنه من الهواة بل هو ليس بارعاً في هذه الأمور.

وجدت نادين نفسها تصغي إليه وتوافقه رأيه فيما يتعلّق بذاك الشاب.

الليلة، وبسبب سفره، ولأنها لن تراه لعدة أيام، أرادت أن تترك انطباعاً حسناً عنها.. فارتدت بعناية للحفلة فستاناً حريرياً أبيض رائعاً من تصميم «بليندا بيلفيل» وكان للفستان تنورة ذات طبقات من الدانتيل، أما ياقة الفستان فكانت منخفضة ومستديرة ومزينة بورود حريرية وردية اللون، تتناغم أي تناغم مع صغر سنها. وبعد ارتداء الفستان تزينت بالألماسات التي كانت لأمها، قرطان صغيران وقلادة مماثلة وسوار. أما شعرها فقد كان مرفوعاً ومربوطاً على شكل كعكة ولكن بعض خصلات هذا الشعر الأحمر الدقيقة داعبت عنقها.. حينما ساعدها والدها على النزول من السيارة أصدر الحرير حفيفه المعروف. وقفا أمام فيلا ميدسيني الزاهية بأنوارها.

تمتم السير برادلي في أذن نادين وهما يرتقيان الدرج الرخامي المنخفض الذي يوصل إلى قاعة رقص تحف بها العمدان الرخامية:

- إنه رائع قديم العهد.

كان واضحاً أن السنيور ميدسيني يترقب وصولهما، فقد وصل إلى الباب حالما وطئا عتبة داره ليحيي والد نادين بسعادة مبالغ فيها قبل أن يلتفت إلى نادين ليبدي إعجابه بها.

- وهذه المخلوقة الخلّابة هي ابنتك؟ أنت رجل محظوظ!

كان إعجابه إعجاب رجل بامرأة جميلة فاستجابت له بابتسامة هادئة... بدرت حركة صغيرة على مسافة غير بعيدة عنها لفتت انتباهها فلمّا رفعت بصرها، وجدت أنها تنظر مباشرة إلى رجل طويل أسود الشعر، يقف وحيداً. الشعر والبشرة السمراء يعلنان بصراحة أنه إيطالي

ولكنه أطول بكثير من جميع الرجال في هذا المكان بل هو أطول حتى من والدها البالغ طوله ستة أقدام. رأت نادين حتى وهي على هذه المسافة أن عينيه رماديتان. وحبست أنفاسها عندما شع فيهما وميض يشير إلى أنه قرأ ما في عقلها. ابتسمت ببرود واستنكار للسنيور ميدسيني، ثم سرعان ما تغيّر مزاجها من التكدّر إلى الفرح.. فقد كانت تحس بالكآبة لأن والدها لن يتمكن من مرافقتها إلى جنوبي إيطاليا.

ـ جوليس، ألن تقوم بالتعارف المطلوب؟

كانت غارقة في أفكار كادت معها لا تلاحظ انضمام الغريب إليهم. كانت كلماته موجهة للسنيور ميدسيني ولكن عينيه لم تفارقا وجه نادين. ولمّا رنَتْ إلى وجه أبيها لمحت فيه تسلية وابتسامة مرح، وعرفت أن وجهها قد احمرّ قليلاً. سمعت السنيور ميدسيني يرجوها بشكل رسمي:

ـ لو سمحت لي السنيوريتا؟

حين هزت رأسها إيجاباً وضع يده على ساعد الشاب وجذبه إلى الأمام، بحيث لامست سترته ذراع نادين العارية. وهذا ما أثار فيها ارتجافاً وبعض الحيرة.

مع ذلك، فقد لاحظت أن السنيور ميدسيني، اضطر لرفع رأسه لينظر إلى وجه صاحبه، وأن العينين الرماديتين برقتا ببريق المرح وكأنه يكيد مكيدة للتأثير فيها أكثر.

ـ ستكون يا سيرجيو محط حسد جميع أصدقائك، فكلهم يتوقعون التعرف إلى الآنسة كلايتون.

قاطعه والدها:

ـ اسمها نادين، وأنا واثق أن السنيور...

سارع السنيور ميدسيني لتعريف الاسم:

ـ سنيور دوباريو.. سيرجيو.. جدة سيرج إنكليزية، لذا يتحدث

اللغة بطلاقة.

وتابع السير برادلي:

ـ أنا واثق أن السنيور دوباريو سيسامحني إن تركت ابنتي معه ريثما أتناقش معك أموراً عملية مهمة أخبرتني عنها سنيور ميدسيني.

سمعت نادين، سيرجيو دوباريو يقول والبسمة واضحة في صوته كما في عينيه وعلى وجهه:

ـ هذا إذا كان غيابك يكفي لمراقصتها..

فيما كان السنيور ميدسيني يرافق السير برادلي، أردف سيرج لنادين:

ـ من سوء الحظ أن السنيور ميدسيني مخطىء.. لم يعد لي جدة إنكليزية لأنها ماتت للأسف منذ عدة سنوات. لكن، إن لم أكن مهتماً بتعزيز ذكراها من قبل فسأباشر بذلك منذ الآن، لأن لغتها هي التي ستمكنني من التقدم على أبناء بلدي لأسرقك منهم، وسيكرهونني.

لم تستطع نادين منع نفسها من الضحك.. الأمر كله سخيف.. مع ذلك فقد أعجبها، وانجذبت إليه.

سمعته يضيف قائلاً:

ـ آه.. هكذا أفضل.. حين دخلت منذ برهة كان في عينيك ظلال. إنهما عينان جميلتان.. يجب ألا تحجب الغيوم لونهما النحاسي.

يجب أن تعترف نادين أنه ماكر. نظرت إليه، في جانب وجهه قسوة كانت تصدم وتراً في نفسها، إنه مختلف وخطير وثمة شيء في داخلها يشعر بالانفعال لهذا. استجابت له لأنه سعى إليها هي من بين جميع النسوة الموجودات في هذا المكان. لم يكن في يديه رغم رقتهما واسمرارهما ذلك الترهل الذي ألفته في أيدي من تعرَّفت إليهم في لندن.. فهما لم تكونا قط يدي رجل اعتاد الكسل. سألها برقة:

ـ أكنت في روما منذ مدة طويلة؟ . . بالطبع لم تكوني وإلا سمعت عنك شيئاً. أنت أجمل من أن تصلي إلى روما دون أن يلاحظ أحد وصولك.

ردت نادين باتزان:

ـ وصلنا هذا الصباح، وسنرحل غداً. . أبي مسافر إلى سان فرانسيسكو.

ـ وماذا عنك أنت؟

شعرت هنيهة بالهجر، وأحست بغصة في حلقها، وأحرقت الدموع عينيها. . إنها سخيفة. ولكنها كانت تمني النفس بالكثير في هذه العطلة، وكانت تترقبها بفارغ الصبر.

كانت أصابعه على ذراعها دافئة، تشعرها بالحماية:

ـ تعالي. . ثمة باب يفضي إلى الحديقة، سنتمشى فيها وعندها تتمكنين من استعادة رباطة جأشك.

حينما أصبحا في الخارج تمتم:

ـ أتسامحينني لأنني ذكرتك بما أزعجك.

هزت نادين رأسها إيجاباً. إنه مهتم بمزاجها وأفكارها وهذا ما جعلها لا تشعر بالتردد أو التحفظ اللذين تعرفهما عادة، حتى مع رجال تعرفت إليهم منذ سنوات.

ألقت الظلمة المخملية الرائعة رداءها على الليل الإيطالي. كانت الحديقة حديقة رسمية. . ممراتها جميلة فيها ورود ونوافير تتراقص في النهار. الضعف السخيف الذي خبرته في أعماقها زاده الليل قوة فانحنى سيرجيو نحوها ثم توقف فجأة، وأدارها إليه، يرفع ذقنها:

ـ دموع؟ هل لي أن أسأل «لماذا»؟

كان ما ظهر منديل في يده ليستخدمه في التقاط الدموع التي بللت وجهها. . فأجابت بصوت مرتجف يرافقه اندفاع متهور للإفضاء له بما

يجيش في أعماقها:

ـ ليس عندي سبب حقيقي، كل المسألة أنني خططت ووالدي أن نقضي العطلة معاً في فيلتنا في جنوب إيطاليا. . وهو مضطر الآن للسفر إلى سان فرانسيسكو صباحاً. . يبدو لي الأمر سخيفاً. . وأعرف هذا، لكن. . أترى. .

وصمتت.

ـ نعم؟

كانت قد توقفت عن الكلام محرجة ولكن صوته الهادىء شجعها على المضي:

ـ كنا على اختلاف كبير ردهاً من الزمن وها قد عدنا إلى التواصل مجدداً.

طأطأت رأسها، وأغمضت جفنيها لإخفاء ألمها وشكوكها ولكنها ذُهلت من نفسها بسبب ثقتها فيه. أردف يقول بتفهم كامل هادىء.

ـ وتخشين أن يكون من الأصل غير راغب في مرافقتك؟

ضرب على الوتر الحساس وهذا ما أذهلها. فمن غير المعقول أن يعرف غريب عنها كل هذا، شعرت فجأة بأنها هشة أمامه ولكن في الوقت ذاته غمرها إحساس من الراحة لأنها وجدت إنساناً آخر يتفهم أفكارها ومشاعرها وهذا إحساس غريب. .

ـ أيصدمك أن أحزر بسهولة ما تحاولين إخفاءه عن الآخرين؟ ألا تلاحظين أن هناك تفاعلاً كيماوياً خاصاً بيننا؟ أنت تشعرين بالتأكيد بما أشعر به أنا؟

أهذا صحيح؟ خفق قلبها بين جنباتها: أهذا هو تفسير ما تشعر به من ألفة تجاه هذا الغريب؟ أم أنها ببساطة تسمح لنفسها بالانجراف الذي يدفعها إليه مزاجها وسحر هذا الليل؟ ماذا تعرف عنه على أي حال؟

وما الذي تحتاج إلى معرفته؟ صاح بها هاتف داخلي! إنها تعرف ما شعرت به حين نظر إليها.. تعرف كيف انقلب قلبها بمجرد رؤية قسمات وجهه المنحوتة بخشونة. تعرف كيف أن جسدها تجاوب مع نظراته.

ـ نادين.

ترك اسمها شفتيه بهمس، فأحست بالتوتر يجتاح كل عضلاتها. فلامست شفتيها بطرف لسانها، بشكل غير إرادي فتوهج الإعجاب في عمق عينيه. وتطايرت الإثارة في جسدها بشكل خطير، فأغمضت عينيها غريزياً، وقد صدمها أن تتصور نفسها بين ذراعيه.. طافت في مخيلتها هذه الصورة وغمرتها حتى كادت توقف أنفاسها، فترنحت قليلاً، وأحست بضغط أصابعه القوية على ذراعيها.

لامست شفتاه جهة من وجنتها الرطبة ثم الجهة الأخرى وأبعدها بحزم عنه رغم مظاهر الخضوع عليها. استطاعت تحت نور القمر أن ترى خطوط جانبي فمه العميقة فشعرت رغماً عنها بفيض من مشاعر الاحترام والإعجاب. ما كان أسهل أن تبعده عنها لو تصرف كما يتصرف أي رجل رافقها من قبل.. كانت في عقلها الباطني قد أعدت له اختباراً، واضطرت للاعتراف بأنه نجح فيه. لو كان مكانه رجل آخر لاستغل ضعفها النفسي والجسدي، ولكن سيرجيو كان يعرف أن اللحظة غير مناسبة لإيقاظ رغبتها، ففي الوقت الحالي لا تحتاج إلا الشفقة والحنان. فجأة شعرت بالخوف منه لأنه يفهمها خير فهم.. استجابتها الجسدية له، وحدها كافية لإخافتها... فهذا ما لم تختبره مع رجل آخر...

ـ تعالي..

تفوّه الكلمة بإيجاز وكأنه تحت الإكراه وهذا ما جعل أعصابها ترتجف استجابة.. وأكمل:

ـ... الأفضل أن نعود قبل أن يرسل أبوك خلفنا فرقة تفتيش.

وفيما كانا يعودان أدراجهما سألها:

ـ أين تقع تلك الفيلا التي ستذهبين إليها؟

أحست نادين بقلبها يخفق بقوة لا تذكر أنها اختبرت مثلها من قبل.

وأخبرته.. ثم راحت تصف باختصار المنطقة والفيلا متعمدة إبقاء صوتها خفيضاً دون أن تحاول إلزامه بزيارة.. ولكنهما تجاوزا الحاجة لمثل هذه الدعوة.. فقد زالت بينهما كل الحواجز حتى بات لا داعي إلى اعتماد الحيل أو التفاخر الزائف، المقبول عادة في مثل حديثهما.

حين تركها سيرجيو أخيراً إلى جانب أبيها، أحست بالحرمان، وظهر ذلك على تعبير وجهها.. راقبها برادلي كلايتون بقلق، وسألها عن السبب، فأكدت له أنه ليس هناك من خطب ولكن صوتها ارتجف، وتعلقت عيناها بظهر سيرجيو المنسحب.

لم تشاهد سيرجيو ثانية حتى أوشكت هي ووالدها على الرحيل، وقد لمحته لمحة فقط إذ كان يقف إلى جانب سيارة سريعة غالية الثمن، وهو يضع مرفقه على باب السائق المفتوح، يحدق إلى الظلام، شاهدت لبرهة من الزمن تعابير وجهه فشعرت بأن شحنة كهربائية تلذعها بطريقة مؤلمة. كان على وجهه خطوط الغضب والكآبة وكانت المرارة تجعد طرفي فمه.. كان غريباً ومع أنه كان ينظر إليها مباشرة، لم يكن في نظرته المعرفة.

قرّب هذا إليها واقع أنهما فعلاً غريبان، وأنها لا تعرف شيئاً عنه، وعن حياته ولا تعرف شيئاً عما رسم نظرة المرارة أو الكآبة على وجهه.

مرّ على نادين ثلاثة أيام في الفيلا التي كان ما يحيط بها جميلاً وموحشاً.. ولكن ويا للغرابة لم يكن والدها من يحتل معظم أفكارها بل هو سيرجيو دوباريو.

كان الزوجان اللذين يهتمان بالفيلا بتكليف من أبيها لطيفان ولكنهما لا يتكلمان تقريباً ولم يكن أي منهما يميل إلى محادثتها، فقررت الاستفادة من الأوقات التي تقضيها في انتظار والدها على أفضل وجه وذلك بأن تزيد من اللون البرونزي الذي اكتسبته في اليونان هذا العام، حين استسلمت لرجاء أحد أصدقائها، الذي طلب منها الانضمام إليه في عطلة سيكون فيها على متن يخته الذي سيجوب به الجزر اليونانية. كانت عطلة كسولة ولكنها لسوء الحظ انقلبت إلى كابوس. . فما إن انضمت إلى سائر المسافرين في أثينا حتى اكتشفت أنهم جميعاً أزواجاً وكان من المتوقع منها أن تكون مرافقة فرانسوا في الرحلة. ثم لم تلبث أن اتخذت الرحلة مساراً سيئاً حتى انتهى بها المطاف إلى شجار رهيب قام بينها وبين فرانسوا بعد ظهر أحد الأيام حين كان اليخت يرسو على شواطىء جزيرة «كورفا».

كان قد قصد الجميع الشاطىء، وكانت وحدها تستلقي تحت أشعة الشمس أو هذا ما ظنته حتى تسلل فرانسوا إليها، وفك لها رباط ثوب السباحة. حالما أدركت أنها ليست بمفردها حتى استدارت، وفي تلك اللحظة بالذات وجد مصوّر طفيلي فرصته والتقط لها صورة.

عندما نشرت تلك الصورة على صفحة الشائعات الاجتماعية بعد أيام شعرت بالخزي والعار فلم تكن الصورة تظهر تعابير وجهها المصدومة، بل أظهرت بوضوح لا لبس فيه القسم العلوي من ثوب البحر المنزوع عنها، ورافق الصورة شرحاً مستفيضاً يغمز بأنها تقضي إجازتها مع أصدقاء منهم العابث العالمي فرانسوا شارمان، هذا عدا أشياء أخرى وأخرى.

قال لها والدها يومذاك إن المصور قام بواجبه ليس إلا لكن نادين أحست أن الحادثة لطخت سمعتها، وكانت آخر قشة قصمت ظهر البعير فقد ساعدتها تلك الحادثة على التخلص نهائياً من زمرتها

القديمة، وأدهشها ألا تفتقدهم أبداً بعد ذلك. اضجعت تحت أشعة الشمس، وكان إلى جانبها قميص وتنورة. . جلست تلف التنورة حول جسمها، وهي تحدق إلى البحر. . إنها تكره أن يعرف سيرجيو ما كانت عليه سابقاً.

ترى كيف كان يمكن أن تكون ردة فعله هو على تلك الصورة! أوحى إليها شيء ما في داخلها بأنها لو تعرضت لمثل هذا الموقف معه، لما وصلت الصورة أبداً إلى الصحف. . ولكن من المستحيل أن يتسلل سيرجيو دوباريو من وراء ظهر فتاة ما ويتصرف كما تصرف فرانسوا. أولاً لأنه لن يكون بحاجة لهذا، ثانياً لأنه لن يطلب الدعاية إن أراد مغازلة امرأة ما. أحست نادين باحمرار وجهها. . ولا علاقة لهذه الحرارة بالشمس، فقد أحست بوهن غريب يتسلل إلى أوصالها لأنها فكرت في ما ستشعر به لو غازلها سيرجيو.

كانت الظلال الطويلة قد بدأت تتسلل إلى الشاطىء، وهي تشير إلى أن النهار بدأ يجمع فلوله وهذا يعني أن عليها ترك الشاطىء وارتقاء الدرجات المنحوتة في الجرف الصخري الذي يفضي إلى الفيلا القابعة في القمة. فبدأت تجمع حاجياتها وتنظر إلى الصخور، تسمرت في مكانها عندما طالعتها صورة الرجل المتقدم نحوها.

كان يرتدي سروالاً من الجينز قصيراً ممزق الأطراف، وتتدلى من عنقه ميدالية ذهبية.

ـ سيرجيو!

خرج اسمه من ثغرها بتعجب، واتسعت عيناها إعجاباً برشاقته، بدا السروال القصير شاحباً ممزقاً وكأنه كان سروالاً كاملاً قبل أن يقتطع ليصبح سرواله. كان لمنظر جسمه تأثير قوي على أحاسيسها، زاده تعاظماً واقع أنه كان يراود أفكارها باستمرار تقريباً منذ آخر لقاء بينهما.

قال لها مبتسماً:

ـ قيل لي في الفيلا إنني قد أجدك هنا.

لم تجرؤ على أن تصدق ما تسمعه فسألت: «جئت تراني؟».

سخرت عيناه منها:

ـ بالطبع لا! أستطيع التفكير على الأقل في عشرة أسباب تدفعني إلى المجيء إلى هنا في منتصف أسبوع عمل عاصف ولكنها كلها ستكون أكاذيب.

كانت نظرته إليها تدمرها ثم لم يلبث أن نقل عينيه من ثنايا جسمها إلى وجهها المشتعل وثغرها الفاغر.

ـ أنت تدهشينني، فعلى شاطىء مهجور معزول كهذا.. لا أظن أن هذا..

وأشار إلى البيكيني:

ـ ضروري.

مرت بضع ثواني قبل أن تستوعب معنى كلامه. وعندما فهمت قصده مدت يدها متوترة إلى نظارتها ووضعتها على أنفها لتخفي اضطرابها.. أيتوقع منها حقاً أن تجلس على الشاطىء دون.. وهو ينزل هذه الدرجات؟

ابتعدت عنه وهي تشعر بالارتباك والذعر لأنها لن تستطيع التفكير بوضوح ما دام موجوداً أمامها.

ـ أكنت.. هل ستبقى طويلاً؟

السؤال غير متماسك ولا مترابط، وندمت على سخافته حالما طرحته ولكن لم يبدُ الاهتمام على سيرجيو.. بل قال بكل عفوية:

ـ يوماً أو يومين. لقد حجزت غرفة في فندق، إذا كان بالإمكان تسمية المكان بفندق في «سان لورنزو» على بعد قليل من الساحل، أتعرفينه؟

ـ أجل.. لكن كان بإمكانك الإقامة هنا، في الفيلا.

ارتفع حاجباه:

- وهل سيوافق والدك على أن تقيمي علاقة كهذه؟

مرة أخرى صدمت استجابة جسدها للصورة التي يرسمها، إنهما معاً في عزلة يتعشيان على الشرفة التي تطل على البحر حيث أنوار النجوم وحدها هي ما تضيء المنظر. وبعد ذلك...

أحست بجفاف فمها، كان جسدها يستجيب لأحاسيس هزت الأرض تحت قدميها.. لم تكن قد شعرت قط بمثل هذه الأحاسيس من قبل، أطرقت برأسها لتلهي نفسها فلاحظت أن منشفتها وقارورة الزيت المضاد للشمس ما زالتا على الرمل. أدركت وهي تنحني لتلتقطها أن عينيه كانتا مثبتتين على جسمها. فارتجفت ارتجافة عميقة وراح العرق يتفصد من شفتها العليا.. ما الذي يحدث لها؟ هل فهم سيرجيو ما تفكر فيه؟

- تعالي، فباميلا طلبت مني أن أقول لك إنها ستبكّر في تحضير العشاء الليلة لأنها ترغب في الذهاب باكراً كما ذكرت أن الغد يوم راحتها، وتنوي قضاءه مع ابنتها.. كنت سأقترح أن نتناول العشاء معاً.. لكن بما أن المسافة بعيدة بين روما وبين هذا المكان. فأخشى أن أقع نائماً. على أي حال هل تسمحين لي بتناول الفطور معك وربما بعد الفطور ننطلق معاً في نزهة بالسيارة؟

ابتلعت نادين خيبتها، وتمسكت بواقع أنه اجتاز بسيارته هذه المسافة كلها ليراها، وأنه يود رؤيتها في الغد. وتمكنت من الرد بابتسامة، ثم عادت تنحني لالتقاط ما تبقى من أغراضها، ولكن صيحة ألم تصاعدت منها عندما داست على حافة صدفة حادة. سرعان ما انتشر الألم ففقدت توازنها وكادت تقع إلى الخلف لولا ذراعا سيرجيو اللتان أمسكتا بها.

بدا لها أن يديه كانتا تحرقان بشرتها الرقيقة عندما كان يمسك بها

وقطب سائلاً: «ما الذي حدث؟».

هزت رأسها: «دست على صدفة إنما لم يحدث شيئاً».

ـ دعيني أرى.

ركع على ركبتيه أمامها، يرفع قدمها المصابة وهذا ما اضطرها إلى التمسك بكتفيه لئلا تقع.. كان لبشرته ملمس ناعم وكانت العضلات المتحركة مطواعة، وكان على نادين أن تكبح رغبة جامحة في أن تمرر أصابعها على كتفيه.. ولكن ذلك يشبه ملامسة جلد نمر ولعل هذا الرجل خطر كالنمر تماماً. نظرت إليه، تراقب رأسه الأسود، وبراعة الأصابع التي تعاين قدمها المصابة، ثم قال:

ـ تبدو لي على ما يرام.. فالدم ينزف منها بحريّة، وإن غسلتها ونظفتها جيداً عندما تعودين إلى الفيلا فلن تحدث تعقيدات، فليس فيها قطع من الصدف المكسور.

رفع رأسه، ثم راحت يده ترتفع من كاحلها إلى الأعلى. أرسل تعبير عينيه الدم حاراً في عروقها.. ثم وقف وأصبحت بين ذراعيه، وجهها يرتفع إليه بشوق.. ووجدت يده طريقاً إلى ظهرها تحتضنه، فجأة أحست أنها خفيفة كالريش وأنها تذوب وأنه يعيد تشكيلها كما يشاء ويهوى، وشعرت بالحرارة الشرسة التي يطلقها فيها.

حينما تركها شعرت بأن جزءاً من نفسها يتلاشى، وعرفت نادين أنه لو اقترح عليها أي شيء لما مانعت أبداً. أرادت منه كل شيء منذ اللحظة التي شاهدته فيها.. لم يكن سيرجيو غريباً لأنها شعرت بأنها تعرفه من قبل، وبأنها كانت تبحث عنه منذ زمن طويل. تعرفت أحاسيسها كلها إليه، ورحبت به، بطريقة لم يستطع تفكيرها الوصول إلى فهم كنهها، أرادت أن تبوح له بهذا، وأن تسأله إذا كان يبادلها هذا الإحساس، ولكنها كانت دائماً خجولة.

تركها، ليعطيها بصمت ما وقع منها من أغراض. ثم قال بصوت

خفيض:

ـ تشاو.. لا تنسي الفطور غداً. ثمة ما ينبئني بأنك فاتنة وأنت تقدمين عصير البرتقال والقهوة.

كان في صوته نبرة سخرية، فتساءلت نادين عما إذا كان يظنها معتادة على تناول الفطور مع الرجال أو بالأحرى مع العشاق، ولكن لو كان هذا ظنه بها لما تردد في قبول دعوتها للإقامة في الفيلا. إنها تعرف أنه يريدها.. وتعرف أيضاً رجال إيطاليا.. إنهم رجال معتدون برجولتهم حتى الغرور.. مع ذلك فسيرجيو يعاملها بالرقة التي يعامل بها قطعة خزف صينية رائعة، وهذا ما تمتعت به. أحبت تحفظه بمقدار ما أحبت رجولته.. من الواضح أنها تعني له أكثر من مجرد محطة لليلة واحدة.

تاقت إلى التعبير عن بهجتها لأنه ينظر إليها على أنها إنسانة لا على أنها ابنة أبيها ولكنه بالتأكيد يعرف ما تحس به، وتنهدت تنهيدة صامتة فكيف يفشل في فهم مشاعرها، لقد رأت الفهم في ابتسامته وأحست به في ضغط يديه عليها.

ارتدت على عقبيها نحو الفيلا بقلب مفعم بالأحلام وبدأت بالفعل تترقّب الصباح المقبل بفارغ الصبر.

* * *

٢ ـ الضحية والجلاّد

لأول مرة منذ وصولها إلى الفيلا تستيقظ وإحساس مثير من الترقب يجتاحها.

استحمت بسرعة ثم ارتدت «تي شيرت» أبيض اللون وجينزاً بنياً وتناولت ثوب سباحة نظيفاً وروباً قطنياً وضعتهما في منشفة كبيرة في حقيبة صغيرة من قماش «الكانفا».

لم يكن لديها فكرة عما قد تشمله خطة سيرجيو في هذا اليوم، ولكنها لن تسمح لنفسها بالارتباك إن اقترح عليها التوقف في مكان ما للسباحة.. كانت تعرف أن فتاة مثلها، لن تقلق بشأن ثوب سباحة.. وبكل تأكيد لا تستطيع التفكير في فتاة من زمرتها القديمة لا يمكن أن تكون سعيدة مبتهجة، لعرض جسدها أمام سيرجيو دوباريو.

في الوقت المحدد وصل سيرجيو وذلك عندما كانت باميلا تحمل الفطور إلى الشرفة.. سمعت نادين صوت السيارة، فتقدمت إلى باب الفيلا تفتحه، كان سيرجيو ينزل من سيارة مرسيدس قرمزية مكشوفة.. في تلك اللحظات وقبل أن يراها، بدا لها مشغول البال، القميص الأسود الذي يرتديه يلف جسده وسرواله الأسود يشتد على ساقيه وخصره لأنه كان منحنياً لتناول مفتاح سيارته، كانت ملابسه عادية وهي غير مصممة لجذب الانتباه، مع ذلك أحست بوجوده، وبرجولته وقوته. شعرت بأنه كان يراجع نفسه في أمر ما، فقد تغيرت أساريره

فجأة من التجهم المتحفظ إلى الإعجاب الرجولي الصريح.

ما إن وصل إليها حتى قال وهو يلف ذراعه حول كتفيها:

ـ لو كنت أعلم أنك تبدين خلاّبة هكذا في الصباح، لما أقنعني شيء بالعودة إلى الفندق ليلة أمس.

أحنى رأسه يحجب عنها أشعة شمس الصباح فعانقها. عندها تساءلت عما إذا كان قد شم رائحة عطرها كما شمّت رائحة عطره.. كانت رائحته رائحة نظافة ورجولة، وأحست برغبة جامحة في أن تلمس وجهه الحليق وعنقه.. لكنها قالت بصوت أجش وشفتين مرتجفتين:

ـ الفطور جاهز.. وصلت في الوقت المناسب.

نظر إليها نظرة مائلة مربكة، أرسلت نبضاتها سريعة في عروقها، وقال:

ـ هذا أمر يعتمد على أشياء أخرى.. كنت أفضل أن أصل قبل الآن لأراك وأنت كالأميرة هاجعة في سبات عميق بانتظار قبلة أمير الأحلام.

كان من السخف أن تحس بالاختناق لمجرد سماع كلمات الغزل. فقد سمعتها في الماضي كثيراً ولم تشعر قط بأية ردة فعل.. فبم يختلف سيرجيو عن سواه؟

حاولت بسرعة أن تصرف هذا التفكير عنها وهي تقوده عبر الفيلا إلى الشرفة الخلفية.

أحست بالسرور لاعتنائها بمائدة الطعام خاصة عندما ألقى نظرة إليها. كانت لفائف الخبز بالسكر والحليب ما تزال ساخنة، وهي متراصة كالذهب في السلة. أما صحن مربى المشمش الصغير فكان في صحن أخضر اللون، كانت تقصد أن يشبه بلونه أوراق المائدة ذات المقبض الأخضر الشاحب التي يستخدمونها في الفيلا.

بعد مرور نصف ساعة وفيما كانت نادين تسكب القهوة في فنجان

سيرجيو للمرة الثانية فكرت في نفسها، أنهما يشبهان زوجين قديمين هادئين. كان يستند إلى الخلف في كرسيه، مسترخياً، يتأمل المناظر التي تشرف عليها الشرفة. وسألته وقد تضرّج لونها عندما التفت لينظر إليها:

ـ ما هي خطتك بالضبط لهذا اليوم؟.. أعني، هل أحضر غداءً للنزهة أم...

ـ بكل تأكيد، إن لم يكن في الأمر إزعاج.. مع أنني أعترف، أن الطعام هو أبعد شيء عن تفكيري.

اعتذرت نادين تريد تنظيف الطاولة من الصحون الفارغة وكان أن تركته وحيداً في الصالة الرئيسية.

لم تسمعه يصل إلى المطبخ، وكادت توقع السكين الذي كانت تفتح به الخبز المستطيل لتضع فيه الزبدة والمربى، حين ناداها: «نادين».

التفتت إليه ولكن نظرة عينيه حيّرتها.. كان يبدو مشغول البال، وكأنما هناك ما يهُمُّه أكثر من نزهة اليوم.. وأكمل:

ـ ربما ليست الفكرة جيدة.

كان يعطيها ظهره وهذا ما تشكره عليه لأنه حال دون أن يرى ألم الإذلال في عينيها.. ما الذي يعنيه؟ أيفكر مجدداً في رغبته في قضاء اليوم معها؟ هل اكتشف أنها ليست تلك الفتاة التي ظنها حين قابلها في روما؟

تمكنت من السيطرة على صوتها ليكون هادئاً غير مكترث:

ـ كما تشاء.. مع أنني ما كنت لأظن أن التردد عادة من عاداتك.

فجأة عادا غريبين. كانت تقصد من وراء كلماتها الأخيرة أن تلذع وتؤلم، ورأت وجهه يتغير، وعرفت أنهما على وشك الخصام وكأنما غيمة سوداء مفاجئة اجتاحت السماء الزرقاء الصافية.

ـ واضح أن هذا ليس عادة من عاداتك.. هل تتخذين دائماً آراء متهورة بشأن الناس، أم بشأن الرجال فقط؟

كان رده ضربة مؤلمة لها ولكنها عجزت عن الاعتراف بأنها لم تتجاوب من قبل مع أي رجل كما تجاوبت معه.

عاد إلى الصالة، ولحقت نادين به، متأكدة أن اليوم قد أفسده الكلام.

أردف يقول: «أظن أن من الأفضل إلغاء خطتنا لهذا اليوم».

توقف أمام صورة موضوعة في إطار على الطاولة، تظهر فيها نادين مع أبيها، ومع أحد أصدقاء الأب القدامى.. أخذ ينظر إلى الصورة بتركيز حيّرها. وما استغربته أن عينيه وفمه اجتاحتهما الكآبة، فقالت له:

ـ إنه صديق قديم لأبي.. إنه.. لقد مات السنة الماضية.

ارتجف صوتها، وعضت شفتها بقسوة.. لم تكن تعرف الرجل جيداً، مع أنه وأباها كانا صديقين لسنوات طويلة. مع ذلك كانت تجد من الألم التحدث عن موته، فقد كان ضحية عملية اختطاف، وموته على يد مختطفيه كان العنوان الرئيسي في الأخبار. كانت نادين حتى الآن تجد صعوبة في إبعاد الرعب المثير عن نفسها، ولكنها لم تخبر والدها عن خوفها من أن تكون هي أيضاً ضحية اختطاف. وأقنعت نفسها بخفة أن بعض الناس يخافون العناكب، أما هي فتخاف المختطفين.

كانت تشك أن مرد خوفها هذا يعود إلى موت أمها.. كانت في المدرسة الداخلية عندما ماتت، ولم تعرف بالأمر. ولكن وصول غريبتين، عرفت فيما بعد أنهما سكرتيرة أبيها ومساعدته الشخصية، أبعدتاها عن المدرسة بدون أن تقدما تفسيراً ثم لم تلبثا أن أخبرتاها بموت أمها وهذا الخبر ترك في نفسها جرحاً لم يندمل حتى الآن تماماً.

أجبرت نفسها على أن تردف:

ـ لقد اختطفه الإرهابيون.

ـ إنها مأساة!

بدا سيرجيو وكأنه يعني ما يقول ووجدت نادين نفسها، تعود لتحيا حزن أبيها. ولكنها نفضت عنها هذا بسرعة.. وقالت:

ـ آه، لا أدري.. أليس هذا ما يجول في خيال الجميع؟

كان هذا كلاماً مقبولاً بين الزمرة التي عايشتها نادين، وطالما استخدمت هذا التعبير لتدافع عن نفسها غير عابئة بالاستنتاج الذي قد يكونه مرافقها عنها، لكنها الآن.. تهتم. وتمنت بمرارة لو أنها لم تتفوه بما قالت خاصة عندما رأت نظرة سيرجيو إليها. قالت وصوتها وعيناها يساعدانها في التوسل ليتفهمها، ويسامحها، مسامحة لا تسمح لها كبرياؤها بطلبها:

ـ سيرجيو؟

تغيرت ملامح وجهه، وطردت ابتسامة العبوس والمرارة القاسية التي ظهرت عليه، والتوى فمه ساخراً:

ـ يبدو أنني استيقظت هذا الصباح ومزاجي سيء وربما السبب أنني غير معتاد على حرير الفندق. كم تحتاجين من وقت للاستعداد؟

لم يشر إلى أنه منذ دقائق قليلة كان على وشك أن يلغي نزهتهما، ولكن الفرح الذي غمر نادين جعلها لا تذكر له ذلك بل وعدته:

ـ عشر دقائق.

وكانت عند قولها. فما هي إلا عشر دقائق حتى وقفت تراقب بإثارة سيرجيو وهو يضع سلة الطعام في صندوق المرسيدس، ثم يفتح لها الباب لتصعد.

كان الطريق لهما وحدهما تقريباً. واسترخت نادين مستندة إلى ظهر مقعدها مستمتعة بالنسيم العليل الذي يتلاعب بخصلات شعرها

وراحت تتنشق عبير الريف الهاجع تحت حرارة منتصف الصيف.. مرّا ببساتين الزيتون المعمِّرة سنيناً وسنيناً قديمة.

وصلا إلى أعلى التلال خلف منطقة الفيلا، فبان البحر في البعيد يلمع أزرق لازوردياً ويلتحم بالأفق. جلست نادين على الأرض وركبتاها تحت ذقنها، تحس بحرارة الشمس وهي تلفح كتفيها.. منذ نصف ساعة، أوقف سيرجيو السيارة بعيداً عن الطريق، في هذه البقعة الجميلة المعزولة، وها هو الآن يستلقي إلى جانبها فوق العشب الطري ينظر إلى السماء. حركت نسمة لطيفة الهواء الساخن حولهما.. كان يجب أن تشعر بالراحة والسعادة بعد الوجبة التي تشاطراها ولكنها لم تكن تشعر بهذا... فقد عقد التوتر رأس معدتها ولكنها شعرت بوضوح بكل حركاته حتى دون النظر إليه.

كان قد انتزع قميصه وبنطلونه، وبقي بثوب السباحة الذي كان يرتديه تحت ملابسه، ولامت نادين نفسها لأنها لم تحذُ حذوه وترتدي ثوب السباحة. أجبرت نفسها على عدم النظر إليه وفكرت في أن بإمكانها الذهاب إلى السيارة لتغيير ثيابها، فلا أحد سيراها.. وكأنه قرأ ما تفكر فيه، فقال متكاسلاً:

ـ لماذا لا تقصدين السيارة لتبدلي ملابسك؟

إنها ترغب في هذا.. فلماذا تتراجع؟ ما هذا الإحساس الغريب الذي يجعلها مترددة في عرض نفسها أمام سيرجيو؟

رفع نفسه على مرفقه ليتأملها.

ـ تبدين وكأنك إحدى عذارى المسيحيين التي تفضل ثياب الأسود على أحضان آسرك الروماني.. إنها تجربة جديدة من نوعها.

أبعدت عينيها عنه لئلا يقرأ فيهما صحة تخمينه فهي فعلاً ما تزال طاهرة. لماذا، وهي التي لم تهتم بهذا من قبل، تحس بالرهبة أمامه؟ ليتها تملك بعض الخبرة لتستطيع الرد. قست كلماته وهو يردف:

ـ لماذا تبدو البراءة شركاً مغرياً للرجال متى شهدوها؟ حين أنظر إليك يصعب عليّ أن أتصور أن رجلاً آخر قد لمس قدَّك الرشيق. يا إلهي.. لا شك أنني سأفقد سيطرتي على نفسي!

ضاعت وهو يميل إليها يأسرها بين ذراعيه:

ـ ثمة ما ينبئني بأنني سأندم على هذا. لكنني لا أستطيع التفكير إلا بالألم الذي يخز في نفسي ويذكرني بأنني من البشر.. ماذا تتوسل مني عيناك حين تنظرين إليّ هكذا؟ الإنقاذ... أم هذا؟

عرفت نادين منذ رأته أول مرة، أنه رجل يعرف كل شيء عن الجنس الآخر.. لكن يبدو أنه أساء الحكم عليها، فضغط ذراعيه القاسيتين عليها، والرغبة التي لم يحاول كبحها، أخافتاها بدل أن تثيراها. وجردها غضب داخلي من كل إحساس أو إغواء.

سألت نفسها بوهن وهي مجمدة بين ذراعيه.. لماذا تشعر بالخوف من التغييرات التي تطرأ عليه؟ فقاومت لتتحرر منه واجتاح الذعر عضلات جسدها أما عقلها وجسدها فكانا يصرخان لها بأنها حمقاء لأنها سمحت له بالانفراد بها في عزلة تامة. ماذا تعرف عنه على أي حال؟

وكأنما أحس بمسار تفكيرها، فخفف فجأة من وطأة عناقه وتمتم معتذراً في أذنها ثم راح يخفف من ذعرها بهمسات رقيقة.

ـ سامحيني «كارا» كنت متهوراً، لكن رغبتي فيك أقوى مني.

رغم كلماته ورغم نظرة عينيه شعرت بأنه يلعب دوراً وكأنه يتفوه بكلمات لا يشعر بها، لكن هذا الشعور مات فور ولادته.. ربما تصورت غضبه.. ربما كان سبب غضبه الرغبة، فهي لا تعرف الكثير عن الأحاسيس التي تسيّر الرجال ومن الواضح أنه ليس بالرجل المعتاد على إنكار رجولته.

أخافتها استجابة جسدها له فحاولت الابتعاد، متمتمة:

ـ يجب أن نعود.. فأنا..

نظر سيرجيو إلى ساعته، ثم أعاد نظره إلى المنظر أمامهما وإلى السماء المهجورة، والطريق المهجور. وقال بعذوبة:

ـ ليس الآن.

حين مضت في اعتراضها، تجاهلها ومضى في عناقه لها، فعلقت أنفاسها بموجة صادمة. وانسل اسمه من بين شفتيها:

ـ سيرجيو..

قاطعها بصوت أجش:

ـ أعرف.. ولكنك جعلت المقاومة صعبة عليّ.. صعبة جداً.

كان وجهها قد أصبح بياض الورق.. أرادت أن تخلل أصابعها في شعره، وتشده إلى ذراعيها ولكن الخجل، وقلة الخبرة أبقياها متباعدة حذرة.. وما هي إلا لحظات حتى وقف سيرجيو، يجذبها معه ويقودها نحو السيارة.

لم يكن لديها الوقت للاعتراض. وفيما كانت تنتظره، أدركت أن سمعه المرهف التقط صوت تقدم اللاندروفر الهابط من التلال نحوهما.. وقف اللاند على مقربة منهما وقفز منه ثلاثة أشخاص: رجلين وفتاة وهم يرتدون الجينز والتي شيرت، ويحملون في أيديهم رشاشات معلقة على أكتافهم، ومصوبة إليها.

أحست نادين أنها دخلت فجأة إلى كابوس، وراقبتهم بعجز يقتربون منها.. من خلفها سمعت سيرجيو يتحرك، فأحست بالراحة لأنها ليست وحدها، فالتفتت إليه تشهق باسمه.

ـ اخرجا من السيارة!

كانت الفتاة تلقي الأوامر بكلمات حادة اللكنة اخترقت ضباب الرعب الذي غلّف نادين.. فتمتمت باسمه مرة أخرى وكأنه تعويذة ضد الشر وراحت تتوسل إليه ولكن عينيها اتسعتا وكأنهما لا تصدقان ما

تريانه على وجهه من تعابير حجرية وما تسمعه من فمه:

ـ نفذي ما قالت لك نادين.

ـ لكن...

ألا يرى أنها لو غادرت السيارة لأصبحت أكثر عرضة للخطر؟ آلمتها ضحكة الفتاة الشرسة وهي ترى وجه نادين الشاحب المذعور أمام ارتباك سيرجيو.

صاحت الفتاة:

ـ انظروا إليها! إنها لا تصدق حتى الآن.. لا بد أنك قمت بعمل رائع في إقناعها بتقبلك سيرجيو.. إنها حتى هذه اللحظة لا ترى الحقيقة الحمقاء الصغيرة!.. سيرجيو شريكنا وهو لن يساعدك.

نظرت نادين إلى وجهه القاسي وعرفت أن الأمر حقيقي. أدار رأسه، وعيناه الرماديتان تتفرسان في كل ذرة ضعيفة فيها، وعرفت بوضوح مرعب، أن كل شيء كان مخططاً له، كل تفصيل ممل، كل كلمة، كل مداعبة، وهي كالبلهاء وقعت في حبائله.. وليس هذا فقط، بل أنها حاكت بكل غباء أحلاماً عاطفية بشأنه... أوهمت نفسها بأن شيئاً نادراً، ثميناً، موجود بينهما... ودار رأسها وهي تتذكر كيف كانت قريبة جداً من تسليمه نفسها.. شكرت الله لأنه وفر عليها هذا الإذلال النهائي! تصورته، وهذه الفتاة الزيتونية البشرة ذات العينين البنيتين، يضحكان على عذريتها الضائعة، وعلى ثقتها التي لم تكن في محلها، مدت يدها مغشية البصر إلى مسكة الباب، لتنزل من السيارة ولكنها تعثرت بصخرة ناتئة وكادت تقع لولا ذراعا سيرجيو ولكنها دفعته عنها دليل كراهية مريرة.. تخبىء الألم المرير، تستخدم ألم خداعه لها لتحويل الألم إلى غضب. تقول بصوت أجش:

ـ لا تلمسني!

ضحكت الفتاة المسلحة للمرة الثانية بسخرية:

ـ آه.. سيرجيو.. لقد أفسدت عليها كل أحلامها الجميلة. ظنتك تريدها لنفسها، ولكنك في الواقع لا تريد سوى مال أبيها.. ترى كم من المال سيسارع لدفعه مقابل حريتها؟ من الأفضل ألا يتأخر.. روما تحتاج إلى دعم مالي سريع لشراء المعدات اللازمة..

صمتت فجأة تشهق ألماً بعد أن تقدم سيرجيو ليمسك بمعصميها ويديرها لتواجهه، ويقول بصوت ثابت بارد:

ـ احفظي لسانك ليديا!

رفعت ليديا رأسها بتحد:

ـ ولماذا؟ ثمة طرق لمنع صديقتك الصغيرة من تكرار ما تسمعه، ولكن هل فقدت إخلاصك لقضيتنا يا صديقي؟ هذا هو اليوم الثاني الذي نتواعد فيه هنا.

هز كتفيه: «لقد تأخرت».

لكن رده لم يعجبها، وانضم حاجباها الكثيفان في عبوس شديد، وقالت بصوت خطير تنظر إلى نادين:

ـ أخرتك هذه.. سيرجيو..

قاطعها سيرجيو:

ـ تأخرت في روما.. تذكري أنني المسؤول هنا ليديا، وأنه من غير المسموح لك أن تسألي عن تحركاتي. والآن اصطحبي الفتاة إلى اللاندروفر.. لقد قضينا وقتاً طويلاً هنا.

استقرت فوهة رشاش ليديا في أسفل فتحة قميص نادين، وقالت ليديا متمتمة من بين أسنان بيضاء حادة:

ـ تعالي.. أنت جميلة ولكن رقيقة.. انظروا كيف ترتجف! هذا الرشاش حساس جداً.. ارتجاف جسدك كاف لـ..

قاطعها سيرجيو ببرود قاتل: «لن تنفعنا ميتة».

كان قد تغير إلى حد كبير كادت نادين معه لا تعرفه. فقد اختفت

الابتسامة الدافئة والسحر السهل وحل محلهما الشرّ المخيف والقسمات المحفورة حفراً.

لكن ليديا سارعت لتوافقه الرأي:

ـ لا نريدها ميتة ولكن والدها سيدفع فدية ابنته حتى وإن شوهناها قليلاً. لقد أحسنت صنعاً باختيارها سيرجيو.. لقد قرأنا كثيراً في الصحف عن نادين كلايتون، وعن علاقاتها ومال أبيها..

التفتت إلى نادين تردف:

ـ سمعنا أنك آتية إلى إيطاليا، فوضعنا خططاً دقيقة وحذرة، قال سيرجيو إنه لا يصعب عليه كسب ثقتك.. فلديك ضعف أمام الرجال.

صاح بها سيرجيو:

ـ توقفي عن إضاعة الوقت ليديا، اصحبوها إلى المزرعة. يجب أن أعيد المرسيدس وعليّ أن أراسل أباها بالتلكس، قد نرى النتائج بسرعة.. والآن تذكري أن يظهر كل شيء طبيعياً حالما تصلون إلى المزرعة خشية أن تكون مراقبة.

ـ ومتى تعود؟

ارتفع حاجباه بسبب العداء في سؤال ليديا المتملك:

ـ لا أدري! إن عودتي وقف على موعد انتهاء الأمر.

سألته ليديا وهي تدفع بفوهة الرشاش نحو نادين:

ـ وهي؟

ـ حافظي على الخطة فقط، وحذار الخشونة فلا جدوى..

ـ ألأنك لا تريد أن يفسد بشرتها الناعمة شيء؟

فجأة فهمت نادين أن ليديا تغار منها.. فما هي علاقة هذه الفتاة به؟ أهما عشيقان؟ صدمها ما شعرت به من ألم ولكن ألَمْ يقتل اكتشافها خدعة سيرجيو كل ما شعرت به نحوه وإلى الأبد؟

وسمعته يرد:

ـ لا تهمني بشرتها بل الثمن الذي سنضعه لها. كما عليك أن تعرفي أن علينا أن نملك دليلاً قاطعاً على أنها ما تزال حية لأجل أبيها، ولهذا لا أريد أن تُمس شعرة من رأسها، على الأقل في الوقت الحالي. سأقرر ما يلزم بشأنها حين أعود.

نظر إلى ساعته الذهبية، وأحست نادين بالإعياء الجسدي لمجرد التفكير في المال الذي يسعى إليه. لقد توقفت عن الوجود كآدمي بالنسبة له، ولكن هل كانت موجودة بالنسبة له أصلاً؟ ها قد أصبحت ببساطة سلعة مميزة.. أما الكلمات التي تفوّه بها قبل أن يتركها مع حراسها الثلاثة فكانت:

ـ لا تحاولي فعل ما هو متهور.. لدى ليديا الأوامر بإطلاق النار عليك إن حاولت الفرار. إنما ليس الأمر أن تقتلك بل أن تجعل ساقيك أقل جاذبية وذلك بأن تغدوا محطمتين.

صعُب على نادين كبح الذعر، فضحكة ليديا الشرسة أخفتها فقط رعدة محرك المرسيدس، التي التمع طلاؤها البرّاق في الشمس قبل أن تسلك الاتجاه الذي سلكته منذ وقت قصير.

كان هذا إحياء حقيقي لأسوأ كوابيسها.. هبوط مباشر من الجنة إلى الجحيم... صرخ بها كل عصب بذعر مجنون فقاومت رغبة في الارتداد على عقبيها للفرار ولكنها تعلم أن فرارها سيكون دعوة سهلة لرد ليديا الذي ستنفذه بكل سرور.

وفيما كانت واقفة تحت حرارة الشمس، أمسكت الحقيقة الباردة بكل مشاعرها الضعيفة.. الحب والرغبة سحقا سحقاً رهيباً، أمام رغبة حارقة في الانتقام. ليس بسبب الاختطاف فحسب بل بسبب الطريقة التي تم بها الاختطاف، وبسبب الطريقة التي استخدمها سيرجيو للوصول إلى حياتها، وبسبب ضعفها وانكشاف مواقع تعرضها للخطر أمامه. لقد استغلها ببرود، وجرأة، وستجعله يدفع الثمن غالياً حتى

ولو اقتضاها ذلك سفك آخر قطرة دم من دمائها! استحوذ عليها فجأة ظمأ للانتقام، محا كل خوف وذعر من نفسها وأعطاها القوة لمواجهة هذه الوجوه الباردة، ورشاشاتهم القاتلة.

والدها مليونير وهو سبب يبرّر اصطيادهم لها، ولكن معظم ثرائه مرتبط بأعماله، فهو وإن استطاع جمع الفدية المطلوبة، لن تخرج على قيد الحياة.. فقد قرأت قدرها ومصيرها في عيني خاطفيها.. كم من الضحايا عانت من الوضع ذاته؟ وكم منهم أطلق سراحهم؟ تذكرت صديق والدها مثلاً. لقد اختطف وقتل.. وهي الآن تواجه خيارين: إما الاستسلام للذعر الذي ينتشر في داخلها، أو الاحتفاظ بآخر ذرة من قوة احتمالها لتزعزع ثقة خاطفيها بأنفسهم. إنها الغريزة نفسها التي جعلت أباها يرتقي من حالته المغمورة نسبياً، إلى المركز الذي يترأسه الآن. انتشرت في نفس نادين الحاجة القديمة للحياة والبقاء، وكان أن اتخذت القرار، وهي تسلك الاتجاه الذي أشارت إليه ليديا بسلاحها، ولسان حالها يقول: البقاء حية أفضل انتقام..! وهذا ما ستتمسك به فعليها أن تعيش، وستقدم للعدالة كل من شارك في ارتكاب هذه الجريمة بحقها.. أما سيرجيو فسيكون الانتقام ألذّ ما ستتجرعه من شراب، وراح عقلها يفكر بسرعة بحثاً عن وسيلة للهرب، متجاهلة صمت البندقيتين المصوبتين إلى ظهرها.

* * *

٣ ـ سأقتلك يوماً

اندفعت فوهة الرشاش بقسوة إلى ظهر نادين، وأمرتها ليديا بصوت متجهم: «ادخلي إلى اللاندروفر».

لكن نادين رفضت أن يسيطر عليها الرعب خاصة وهي تعرف أن ليديا تريد منها أن تخاف.

راقبها الرجلين وهي تصعد إلى اللاندروفر على مضض، ولكن الرجل الأصغر جسماً والأدكن لوناً هو من جعل نادين ترتجف بسبب الطريقة التي كانت عيناه تستكشفان جسدها. قالت ليديا وهي تدخل قدميها إلى داخل اللاندروفر.

ـ تذكرا ما قاله سيرجيو، علينا حينما نصل إلى المزرعة أن نظهر كل شيء بمظهر طبيعي.

رد الأكثر اسمراراً بكراهية:

ـ سيرجيو! ديو.. يا إلهي! من هو ليعطيني الأوامر؟ طالما عملنا سابقاً وحدنا!

أجابت ليديا بقسوة.

ـ هذا كان قبلاً أما الآن فلدينا أوامر من روما. سيرجيو هو المسؤول. أليس هو صاحب الاقتراح؟ سنجني مالاً أكثر بكثير مما...

قاطعها الأطول موافقاً:

ـ المال.. آه.. أجل، نحن بحاجة دائمة إلى المال. منظمتنا لا

تلقى دعم الأثرياء.

ضحك الثلاثة، ثم شهقت نادين ألماً حين أمسكت ليديا بمعصمها وأمرت بيدرو أن يأخذ المقود على أن يساعدها لينو على تكبيلها بالقيود.

كان لينو أصغر الرجلين جسماً وهو من كرهته نادين وعندما مال إليها ذعرت من قسوة جسده، لم يكن طويل القامة، إلا أنه قوي العضلات فأصابعه قبضت بسهولة على معصميها في آن واحد وكان أن اضطرت للاستسلام إلى الإذلال الأخير بوضع الأصفاد في يديها مربوطة إلى جانب اللاندروفر، قالت ليديا:

ـ نتخذ هذا التدبير لئلا تقومي بعمل أحمق، كالقفز من السيارة مثلاً. ولكنك لن ترمي نفسك، فأنت لست من الصنف المغامر.. أليس كذلك؟ ألم تفكري يوماً وأنت تعيشين حياة الترف، أن في العالم أشخاصاً يعيشون على الكفاف، ويضطرون دائماً لإعطاء ضريبة من مدخولهم القليل لدعم مضطهديهم؟ ولكن، سرعان ما ينتهي هذا كله.

أفزع خيالها المفرط نادين التي لم تفهم ما تقوله الفتاة.. ولكن هاتفاً داخلياً حثها على إظهار الاهتمام، وكأنما في إصغائها لآسريها قد تكتشف مفتاح الحرية.

ـ أتؤمنين بالمساواة بين البشر؟

برقت عينا ليديا:

ـ أنت على حق. من حق جميع الرجال والنساء المساواة، لكنهم محرومون من هذا الحق الإنساني الأساسي.. فالثروة التي يجب أن تكون مقسمة بينهم تمسك بها الأقلية، خاصة الكنيسة.. ولكن سرعان ما سينتهي كل هذا.

لم تستطع نادين تصديق ما تسمع، وقالت:

ـ لكن إيطاليا بلد الكاثوليك.. ولا أظن الناس سيتخلون عن

دينهم.

قاطعها لينو:

ـ إذن سنضطر لاستخدام القوة.. وفي النهاية سيرى الشعب الحكمة فيما نفعل. فالكنيسة أصبحت مهترئة.. إنها آلة لصنع المال، ولتجويع الناس.. سنأخذ تلك الثروة ونتقاسمها فيما بيننا.

فكرت نادين برعب، بأنهم لا يصدقون بالطبع أن بإمكانهم إنجاز ما يقولون ولكنها كانت ترى أنهم يصدقون. فعلى وجه كل واحد منهم تعبير ثابت حالم، وحماسة مجنونة مسطورة بوضوح على قسماتهم.. أيشاركهم سيرجيو وجهات نظرهم المتطرفة؟..

قالت لها ليديا:

ـ تتلقى المنظمة دعماً كبيراً في الجامعات.. فشبابنا يرون زيف الدين المسيحي. «فليتبارك الضعفاء» أليس هذا ما يقولونه؟ لكن القول والفعل أمران مختلفان ففي هذا العالم لا يداس إلا على الضعفاء.

سألتها: «وأنتم تنوون تغيير هذا؟».

رد بيدرو بصوت خال من الشفقة:

ـ هذا ما يظنه الكثيرون من الناس، ولكن لا بد من وجود من بيدهم السلطة دائماً، ومن ينحني أمام تلك السلطة، لكن قبل أن نستطيع إعادة البناء، علينا أولاً أن ندمر. وحتى نفعل هذا نحتاج إلى مال، ونحن نجمعه عن طريق الفدية.

تفاخرت ليديا:

ـ أكثر ما يخاف الناس من المنظمات الإرهابية منظمتنا، لأننا مسؤولون عن موت أكثر من ألف شخص حتى الآن.

صاحت نادين:

ـ لكنكم تقتلون الأبرياء.. اعتقد أن بإمكانكم الحصول على مزيد من الدعم عن طريق النقاش المنطقي، لا عن طريق الإرهاب المجنون.

رد بيدرو ساخراً:

ـ كما يفعل الأثرياء الدكتاتوريون؟ لقد اكتشفنا أن رشاشاً واحداً يفعل فعلاً لا تفعله مليون كلمة، ومع ذلك سيأتي يوم يصغي فيه العالم إلى كلماتنا، حتى لو اضطررنا لتدمير كل ما أو من يحاول الوقوف في وجهنا.

أرعب الحقد البارز في نبرات صوته نادين.. كانت كلماتهم كلمات متطرفين سياسيين.

ـ اخرجي!

كانت غارقة في أفكارها فلم تدرك أن السيارة توقفت. دفعتها ليديا إلى خارج اللاندروفر، بعدها فكت لها الأصفاد:

ـ اسرعي، لا تدعي لينو منتظراً.. إنه يفقد صبره بسرعة، وحين يحصل هذا...

لم تنه تهديدها، لكنها لم تكن بحاجة لإنهائه لأن نادين رأت الرجل يبتسم لها بخشونة. قال مقترحاً:

ـ لماذا لا أظهر لها عينة عما هو مخبأ لها.

ومد يده يمسك صدر قميصها، فارتدت في مقعدها، قبل أن ترد ليديا بشيء من الندم:

ـ طلب سيرجيو ألا نلمسها.

كشّر لينو عن وجهه، وقال بقذارة:

ـ لأنه يريدها لنفسه.. ثم، كيف له أن يعرف؟ لن يكون الرجل الأول الذي تعاشره.

ردت ليديا بحرارة:

ـ سيرجيو لا يريدها.. إنه يحتقرها ويحتقر كل ما تمثله. لقد سمعته..

والتفتت إلى نادين ثانية: «هيا اخرجي».

وخرجت نادين مرتجفة فقد جعلتها لمسة لينو تحس بالغثيان. تشكر الله لأنهم لا يعرفون الحقيقة.. فلو عرفوا. وارتجفت بعنف مدركة أن عملية تدمير براءتها ستكون تسلية لرجل مثل لينو.

يقع المنزل الزراعي بين بضعة فدادين من الزيتون الرديء الصنف والكرمة المهجورة. وهناك نصف دزينة من البقر الهزيل في اسطبل صغير ملحق بالبناء الرئيسي.

قالت لها ليديا:

ـ هذه فكرة أخرى لسيرجيو.. لو جاء أحد إلى هنا، لشعر بأننا عائلة فقيرة يحاول أفرادها تأمين قوتهم اليومي. بيدرو ولينو أخوان.

سألتها نادين بطريقة لا إرادية: وسيرجيو؟

وليتها لم تسأل فقد لاحظت لمعان الانتصار في عيني الفتاة:

ـ أوه.. سيرجيو يلعب الدور الذي يلعبه في الحقيقة.. إنه رجلي، حبيبي...

وضحكت بشراسة:

ـ.. أيتها الحمقاء الثرية الغبية! أظننت حقاً أن رجلاً مثل سيرجيو قد يعجب بفتاة مثلك؟ أنت امرأة غبية لا تفهم إلا ما له علاقة بملابسها ومجوهراتها؟

التوى فمها بسخرية، فأحست نادين بغضبها يتصاعد وقالت ساخرة أيضاً:

ـ على الأقل، هذا أفضل مما تطلقون عليه اسم «القضية».

أمسكت ليديا بشعرها تشده وتشده حتى انتشر الألم في رأسها كله، أما أصابع اليد الأخرى فتركت علامات قاتمة على خد نادين، لأن تلك المرأة صفعتها. أرادت نادين أن تتقيأ بشدة ليس من الألم بل بسبب العنف الجسدي. أهذه هي المرأة التي يفضلها سيرجيو عليها، هل ضحكا عليها وهما يتباحثان خطط الأسر وطرق المغازلة التي

سيعتمدها سيرجيو؟

قالت ليديا وقد قرأت أفكارها:

- كان هذا واجبه.. لا تظني أنه يشتهيك.. إنه يكرهك ويكره مثيلاتك. ولولا المال الذي سيدفعه أبوك لاسترادادك لقتلك غير نادم وكأنه يدوس على أفعى.

بدأت أخيراً نادين تفهم أنها فعلاً أسيرة هذه العصابة المتطرفة المعتوهة التي لا تحترم الحياة الإنسانية أبداً، وما سيرجيو إلا واحد منهم. مضت لحظة أوشكت فيها على أن تُذل نفسها بالانهيار ولكنها تمكنت بجهد خارق من استعادة رباطة جأشها.. يجب أن تركز تفكيرها على الهرب والانتقام كما يجب أن تمنح نفسها قضية تعمل لأجلها.

سرعان ما أصبحت في المنزل. في الطابق السفلي ثمة غرفة واحدة كبيرة بدائية الأثاث، أرضها من الطين الذي مهدته السنين وثمة مطبخ أكثر من بدائي في زاويته موقد كبيرة وحنفية يتيمة. كانوا قد مروا بمبنى صغير مستقل وارتجفت لمجرد التفكير ببدائية العيش هنا.. فهل سيحاول آسروها تلقينها مبادىء تعاليمهم؟ إن حاولوا فستقاومهم بشدة، ولكنها تشك في أن تقبل منظمتهم انضمام الضحايا إليها فهم ينظرون إليها بمنظار المال الذي سيجنونه من ورائها وهذه هي نظرة سيرجيو إليها.. سيرجيو! لماذا ما زالت تشعر بهذا الألم الذي لا تفهم له سبباً؟ فالرجل الذي ظنته، غير موجود إنه حلم يقظة ليس إلا. هو رمز الحب والهوى اللذين صورتهما لها مخيلتها ورغبتها.

- تعالي!

أرجعت الكلمة القاطعة والوخزة المؤلمة نادين إلى واقعها.. أشارت ليديا لها بالمسير لتصعد سلماً خشبياً بالياً يقود إلى الطابق العلوي. كان هناك أربعة أبواب تنفتح على منبسط السلم الصغير وكان

في أحد هذه الأبواب قفلاً جديداً لماعاً، فتحته ليديا، ودفعت الباب فثارت عاصفة من الغبار.. كانت الغرفة صغيرة نوافذها صغيرة وهواؤها عفن رطب، أما السرير المتربع فيها فضيق كسرير المخيمات وإلى جانبه كيس نوم.

قالت ليديا بأدب ساخر:

- هذه غرفتك.. أرجو أن تجد السنيوريتا كل ما تشتهيه نفسها.

أغلقت الباب وراءها وأحكمت إيصاده قبل أن ترد نادين.

ركضت إلى النافذة ولكنها لم تشاهد سوى الريف الأجرد، والنهر الضيق الذي يشق أحد السهول.. عليها أن تعترف أنهم محترفون.. وفكرت في وضعها، فحتى يعرف والدها أنها مفقودة سيتعذر على أحد إيجادها. لقد قرأت أشياء عن هذه المنظمات المتطرفة وعن أعضائها العديمي الشفقة والرحمة في معاملة ضحاياهم ولكن رغم كل ذلك عادت القصص المرعبة التي قرأتها تجول في خلدها. إنها تذكر وريث عائلة كلارك الذي فقد أذنه، ثم لينا ميسون التي أجبرت على الانضمام إلى العصابة التي خطفتها. كما تذكرت العشرات أيضاً. فجأة تخلت عنها سيطرتها التي رافقتها منذ بداية محنتها، وراح جسدها كله ينتفض، وكبحت رغبة في الصياح والصياح حتى يبح صوتها.. وما إن تخطى الذعر دفاعاتها حتى طغى على عقلها، فرمت نفسها على وجهها فوق السرير الضيق تنتحب وتنتحب ثم ازدادت بؤساً عندما راح الجوع يقض مضجع معدتها. أيخططون لتجويعها أيضاً؟ توقفت دموعها عن التدفق، ثم استقامت في جلستها تعترف لنفسها أنها كانت بحاجة إلى هذا الانطلاق القصير.. توقف جسدها تدريجياً عن الارتجاف، ثم لمَّا سمعت وقع أقدام على الدرج ذعرت فمسحت وجهها بسرعة وراحت تدعو ألا يلاحظ أحد آثار دموعها على وجهها.. أصغت متشنجة فسمعت ليديا تقول:

ـ لينو . . عد إلى هنا . . لقد وصل سيرجيو!

تلاشى وقع الأقدام مجدداً فتنفست نادين الصعداء، ففي عيني لينو الصغيرتين ما يجعل بشرتها تقشعر اشمئزازاً . . . يا رب العالمين! ليتهم تنحو لتجعلهم يدفعون الثمن كلهم وأولهم سيرجيو الذي خدعها باهتمامه بها في حين أنه لا يهتم إلا بمالها!

كانوا يقفون في الغرفة السفلى، سيرجيو وليديا إلى جانب الطاولة الطويلة الرثة، ونادين على الطرف الآخر . . أما لينو وبيدرو فيحرسانها .

لم يكد الفجر يبزغ حتى شعرت نادين بأنها لم تكن يوماً مسرورة برؤية الفجر كما هي الآن ذلك أنها لم تنم إطلاقاً . كان النوم مستحيلاً، وها هي الآن هنا، في هذا البناء المهترىء حيث يقال لها إن أي حركة خاطئة تبدر منها تعني رصاصة في ساقها على الأقل .

ـ هل فهمت الوضع؟

تجاهلت لمعان التحذير في عيني سيرجيو وأجابت :

ـ لماذا لا تبقيني أسيرة القفل والمفتاح؟

ما أشد ما تغير! كيف فكرت أنه إنسان لطيف المعشر؟ إنه أقسى رجل عرفته يوماً .

رد عليها ببرود :

ـ لسنا أغبياء إلى هذه الدرجة . . قد يجري تفتيش هذا المكان، لذا عليك أن تتصرفي كما سآمرك بالضبط . أنت ابنة عم ليديا . . معتوهة قليلاً، ولكنك مفيدة في أعمال المنزل . . أما نحن فاشترينا المزرعة منذ مدة قريبة ونعمل جاهدين على إعادتها إلى العمل وهذا ما سنفعله . وسيكون ذلك تمريناً مفيداً يا رفاق في الأيام القادمة وسيقع على كاهل كل منا متاعب العمل، تذكروا أن العالم دولة قوامها العمل .

لولا ذكاؤها لأقسمت أن هناك شيئاً من السخرية في آخر كلماته . .

سرعان ما علقت ليديا على كلماته محتجة :

ـ لن نعمل في الأرض كالفلاحين سيرجيو . . هذا ليس . .

ـ أعتقد أن أهم تعاليم منظمتنا هو أن يكون الجميع متساويين وألا يكون بينهم سيد ومسود .

التفت الجميع إلى نادين وهي تقاطع ليديا التي أطلقت عليها نظرة حادة .

ـ يجب أن يكون هناك دائماً من يتولى السلطة . . منظمتنا تحضّر الآن رجالاً ونساء لمثل هذه المناصب ولكنها تشترط ألا يدفعهم الجشع أو الشهوة إلى السلطة كما يحدث في الحكومات الحاضرة .

قالت نادين ببرود تقاطعها :

ـ هذه كلمات الديكتاتورية في جميع أنحاء العالم .

صاح سيرجيو :

ـ كفى! والآن إن جاء الشرطة للتفتيش عنك هنا، فحذار أن تبدر منك حركة خاطئة . . لأننا سنقتلك ونقتلهم .

قالت نادين بمرارة :

ـ وهل تستحق قضية مهما كان شأنها سفك هذه الدماء كلها؟

ردت ليديا غاضبة :

ـ اسألي حكوماتك المستبدة . . لقد سمن حكامها وتكاسلوا على حساب موت الآخرين . . اسأليهم إذا كان موت هؤلاء يستحق .

قاطعها سيرجيو :

ـ ستجدين صعوبة في تلقينها التعاليم ليديا، أنسيت أن والدها أحد أولئك الامبرياليين؟

ودت نادين القول إن والدها بدأ حياته بقدرات متواضعة، وبنى لنفسه امبراطوريته المالية بجهده وعرق جبينه . ولكنها اختارت عوضاً عن ذلك الصمت . وإنما هل ستجرؤ على كشف العصابة للشرطة،

وهل ستصل الشرطة للتفتيش عنها في المزرعة؟ اعترفت على مضض أنها لا تجرؤ. . فهي لن تخاطر فقط بحياتها، بل ستخاطر بحياة رجال الشرطة أيضاً. . سمعت سيرجيو يسخر منها وقد فسّر نظرة عينيها.

ـ أنت حكيمة. . تذكري ذلك حالما تشعرين بأقل تهور. لدى بيدرو ولينو أوامر لن يترددا في تنفيذها. آه وثمة أمر آخر. . قالت ليديا إنك كنت تحاولين إقامة صلة ما مع لينو. وأنا أنصحك بالتراجع فلينو مخلص للقضية نعم هو ضعيف أمام سحر النساء ولكن إياك التفكير في استغلال ضعفه هذا من أجل هروبك، فهو قادر على مغازلتك وقتلك في وقت واحد. . أنت بالنسبة له مجرد جسد، لا شخص. الأفضل أن تتذكري هذا.

ردت بمرارة:

ـ وكيف أنسى؟ فهذا هو القائم المشترك بينكما. ولعلها أحد تعاليم منظمتكم.

أحست بالرضى عندما رأت وجهه الأسمر يشحب. إذن، لديه نقاط ضعف على أي حال ويبدو أنه لم يعجبه أن تقارنه بلينو. .

ماذا ستفعل إن حضر الشرطة؟ ترى هل ستقدر على أن تسترعي انتباههم؟ أم سيتعرفون هم إليها؟ تصاعد أملها، وكأنه رأى هذا في عينيها وأدرك السبب، فأعلن باختصار:

ـ يجب أن نفعل شيئاً لمظهرك.

تأملها ثم قال لليديا:

ـ حالما ألتقط لها الصور لأرسلها إلى والدها، قصي لها شعرها.

شعرها! ارتفعت يد نادين إلى رأسها وكأنها تحميه. . آه، شعرها الطويل، لقد وصفه والدها بأنه أشبه بالحرير السائل. شاهدت الانتصار في عيني ليديا، وعرفت كم ستسعد بتنفيذ المهمة.

كان الفطور عبارة عن خبز أسمر رديء وجبنة ماعز وقهوة مرّة.

أجبرت نادين نفسها على تناول الفطور وقالت لنفسها إن عليها المحافظة على قوتها، وإنها لن تحقق شيئاً بتجويع نفسها.

لكي يلتقط الصور التي ينوي إرسالها إلى والدها، جعلها سيرجيو تجلس على كرسي خشبي مستقيم، أما ليديا فقيدت يديها، وشدت ذراعيها إلى ما وراء ظهرها فانسلت صرخة ألم من بين شفتيها المطبقتين، ولاحظت أن عيني سيرجيو ضاقتا لمشاهدة القساوة المتعمدة فقال:

ـ كفى ليديا. . لا نريد أن نخيف الأب الحنون برؤية ابنته باكية.

اعترضت ليديا:

ـ ولماذا لا؟ سيشجعه هذا على دفع الفدية في أسرع وقت.

صحح سيرجيو لها معلوماتها ببرود:

ـ وقد يدفعه إلى أن يقوم بحماقة. . ألا تذكرين ما حصل مع جورج آدمز.

خفق قلب نادين لسماع اسم صديق والدها، وهمست بألم: «أنتم المسؤولون عن مقتل جورج آدمز»؟

رد سيرجيو ساخراً: «ليس شخصياً».

قاطعهما بيدرو: «سيرجيو لا يهتم بسفك الدماء لأنه في غاية اللطف».

رد سيرجيو ببرود:

ـ بل أنا رجل عاقل، فلم نحقق من مقتل آدمز شيئاً، بل كلفنا مالاً، والفدية لم تدفع. أنا لا أمانع في التخلص من أي دليل إنما قبل ذلك علينا أن نحصل على المال.

إنه أسوأ من الباقين، فعذر هؤلاء إيمانهم بقضيتهم أما سيرجيو فلا يشاركهم التزامهم، إنه ساخر ومنعزل. فلماذا يتعاون مع أمثالهم؟ ماذا يفعل معهم؟ لا تستطيع التفكير إلا في سبب واحد. . المال. . أيمكنها

أن تقنعه بإطلاق سراحها وذلك بعرض رشوة عليه؟ أو بتقديم اقتراح له بأن تدفع له الفدية مباشرة ليطلق سراحها بدون أن يؤذيها؟

قال لها آمراً، بصوت منخفض جذاب وهو يحضر الكاميرا:

ـ ابتسمي لأبيك.

لكنها شدت على شفتيها بحزم، ورفضت حتى النظر إلى الكاميرا. تنهد سيرجيو ثم تقدم إليها، وأمسك ذقنها ليدير رأسها، فسألت ليديا:

ـ لماذا تتسامح معها بهذه الطريقة؟ لقد أصبحت لين العريكة يا صديقي.

وليدحض كلامها، اشتدت قبضته على ذقن نادين بشكل مؤلم، وأصبحت عيناه قطعتي ثلج. وأدار وجهها بقسوة لتواجه الكاميرا. وقال:

ـ ابتسمي نادين، وإلا غيرت رأيي واتفقت مع ليديا بأن للدموع تأثيراً كبيراً في والدك.

ردت من بين أسنانها ناسية القسم الذي وعدت به نفسها، وهو ألا تنزل إلى مستواه بتبادل الأحاديث معه.

ـ وكيف ستفعل هذا؟

ـ أمر بسيط.. خاصة وأنا أتعامل مع غبية مثلك.

همست بقرف:

ـ أنت.. أيها الساديّ! أعتقد أن عقلك الملتوي يظن أن خداعك لي واستغفالي أمر يدعو إلى الافتخار والتباهي.

ارتفع صوتها يصرخ:

ـ .. حسناً.. هيا.. أخبرهم، وأظنهم سيوافقون على ما فعلت! أنتم جميعاً لستم من الجنس البشري!

وتهدج صوتها مثقلاً بالدموع، فحذرها سيرجيو بحدة:

ـ حذار، وإلا أظهرت لك أنني قد أكون غير إنساني.

واستقرت عيناه قصداً على ثنايا جسدها، وما أرعبها أن تجد نفسها تتضرّج خجلاً فنظرت إليه مباشرة، وهذا ما كان يريد.. فقد قفز بسرعة يلتقط الصورة قبل أن تبعد نظرها، ولمعت أضواء عدسة الكاميرا حولها، واضطرت للاعتراف بأنه خدعها مجدداً... وكرهته.. كرهته!

عادت إلى واقعها وهي تسمعه يقول بصوت أجش:

ـ والآن.. التسجيل. فلنسجل بعض كلمات للأب العجوز ولا تنسي أن تقولي له إنك تستمتعين معنا.

صاحت به وهو يضع أمامها جهاز تسجيل صغير:

ـ اذهب إلى الجحيم! لن أتفوه بكلمة!

الطريقة التي تقدّم بها إليها رافقتها صيحته، «آه، ولكنك قسماً ستتكلمين»، كان لصيحته هذه تأثير مطبق على إرادتها.

أردف: «نستطيع تحقيق هذا بطريقتين إما بنظافة وبدون مشاكل وإما بضجة و...

صمت منتظراً وعرفت نادين أنه لا يطلق تهديده اعتباطاً، لذلك استسلمت مجبرة الكلمات اللاذعة على التراجع.

فقالت بصوت أجش: «ماذا عليّ أن أقول»؟

كانت تحاول جاهدة تجاهل كرامتها الثائرة على استسلامها، ولكن أسرها واختطافها قضيا تقريباً على روح المقاومة.. وكان التسجيل مختصراً لم يتعدّ بضع جمل، قالت فيه إنها في خطر كبير وإن على والدها عدم اللجوء إلى الشرطة وتنفيذ ما يطلبه الخاطفون بحذافيره.

قال سيرجيو ساخراً حين أنهت كلامها:

ـ رائع.. أترين ما أسهل الحياة عندما نتعاون؟

استسلمت لعواطفها وهمست: «يا إلهي ما أشد كرهي لك!».

ضاقت عيناه اللتان تركزتا على وجهها الذي سرعان ما تضرّج خجلاً.

وضع الشريط المسجل في مغلف وأخفاه، ثم عاد ليقول:

ـ حسناً.. الجميع إلى مراكزهم.. نادين ستساعد ليديا في تحضير الغداء.

تمتمت معترضة بأنهم خاطفوها ولكنهم لن يجعلوها خادمة منزل.. فصاح بها:

ـ ماذا؟ أتجدين عمل المنزل وضيعاً؟ أتفضلين العمل مع لينو في حقول العنب؟

يا الله كم تكرهه! لقد عرف نقطة ضعفها بسهولة شيطانية.. وعرف ما تشعر به تجاه لينو الذي يجعل بشرتها تقشعر رعباً وقرفاً.

وعندما كانت تهز رأسها غير قادرة على التفكير السويّ، لحقت ليديا إلى المغسلة البدائية القذرة وكانت ضحكة ليديا الهازئة تصم أذنيها. وهناك في المطبخ بدا من الواضح أن ليديا لا تتقن شيئاً من الأعمال المنزلية، ودفعت ليديا بقصعة الخضار إلى نادين.

ـ خذي، اعملي أنت بها.

واتبعت أوامرها بمحاضرة عن وجهة نظر المنظمة عن دور المرأة في المستقبل، وقد فهمت نادين منها أن هذا المستقبل لا يشمل مثل هذه الواجبات، كتحضير الخضار للطبخ مثلاً.. ولكن من تظن ليديا ومثيلاتها أنه سيقوم بالمتطلبات الأساسية كالطعام والملبس والأعمال المنزلية الضرورية، في ذلك العالم الجديد الذي تصمم ليديا ومثيلاتها على تكوينه؟

عندما كانت تبرش الجزر نظرت إلى السكين التي تحملها.. إنها صغيرة وحادة.. أيمكن.. أتجرؤ على أن تخبئها؟ نظرت من فوق كتفها فإذا لينو واقف في الباب ينظف بندقيته، وبيدرو في الخارج.

كانت ليديا تتحدث بصوت منخفض مع سيرجيو فخفق قلبها بشدة وهي تلف أصابعها حول السكين..

ـ هل انتهيت؟

انتزعت ليديا القصعة المعدنية منها فأسرعت نادين تدس السكين في جيب سروالها. ضج الدم في عروقها لأنها توقعت أن يصيح بها أحدهم ولكن أحداً لم يفعل ذلك.

سألت ليديا:

ـ متى أقص لها شعرها؟ لن نخاطر بتركها على هذه الحال.

نظر سيرجيو إلى نادين، فازدادت سرعة نبضات قلبها، هل عرف بأمر السكين؟ كان في عينيه تعبير غريب، وللحظات ظنت أنها سمعت شيئاً من الندم في كلمة «لا!» التي قالها، وأكمل:

ـ حسن جداً.. إذن.. أصطحبيها إلى فوق.

كان لينو يتكىء على السلم وهذا ما جعل نادين تضطر إلى ملامسته عندما مرت به.. ابتسم ابتسامة الذئب وعيناه تجوبان جسدها.. فتقوقعت على نفسها، قالت ليديا لسيرجيو:

ـ انظر إليها! تتظاهر بطهارة لا تملكها. لينو لا يختلف عمن عاشرتهم من الرجال، واعلمي أن له عشيقات من الطبقة الراقية، فنساء الطبقة الراقية يعشقن الرجال الأقوياء، أليس كذلك «كارا»؟ أم أنك تظهرين هكذا، شاحبة ضائعة بسبب سيرجيو؟

التفتت إلى سيرجيو تحذره بصوت ناعم:

ـ حذار يا رفيق.. ستحاول الالتفاف حولك، أعرف مثيلاتها!

دفعتها ليديا في سجنها الضيق إلى الكرسي الوحيدة. وكانت الإيطالية رغم نحولها قوية فتألمت نادين من ضغط أصابعها وحاولت عدم الصياح حتى عندما شدت بقسوة شعرها، تقطع الخصلات الحريرية بمقص مطبخ غير مشحوذ.

لن تصرخ، لن تبكي.. ولكن صعب عليها عدم الشعور بالعذاب والألم وهي ترى شعرها يقع على الأرض عند قدميها.. حين انتهت ليديا من عملها، قالت ساخرة:

ـ ليس شكله مستساغاً عندك ولكنني سمعت أنهم في إيرلندا الشمالية يطلون الخائنات بالقطران وبإلصاق الريش فيه.. وأظن أن الطريقة الوحيدة لإزالة القطران هو بحلق الشعر كله.. أليس كذلك؟

ـ ولماذا تسألين؟ أتفكرين في إقناع منظمتكم بتبني هذه العادة مع الخائنات؟

ـ لا.. لكنني أظن أن والدك سيدفع الفدية في أسرع وقت إن شاهد صورتك وأنت مطلية بالقطران وفوقك الريش ملصوق. يجب أن أكلم سيرجيو في هذا الأمر.

هذا أكثر من أن تطيقه نادين. بطريقة ما أصبحت السكين في يدها، التي ارتفعت نحو ليديا. وسمعت صيحة الفتاة الشرسة، وسمعتها تنادي سيرجيو، وسمعته يأمر لينو بالبقاء على حذر ثم ارتقى السلم الخشبي بسرعة ودخل إلى الغرفة، حيث رأى المنظر.

ـ نادين! أعطني السكين!

ثم دار خلفها وأمسك معصمها بحزم، ولكن بدون أن يؤلمها. أرجع ذراعها إلى الخلف يفتح أصابعها فوقعت السكين إلى الأرض.. أمسكت ليديا ما تبقى من شعر نادين وشدته بقسوة، وصفعتها على وجهها تكيل لها السباب بلغتها.

صاح سيرجيو: «ليديا، توقفي!».

ـ انظر ما فعلته بي!

تركتها لتريه جرح السكين على ذراعها وأكملت:

ـ سأجعلها تدفع الثمن!

تحرك سيرجيو، ليكبح ليديا بالسهولة التي كبح فيها نادين..

وسألها بهدوء: «هل فتشتها؟».

صاحت نادين: «لن تلمسني ثانية!».

خرجت الكلمات منها قبل أن تتمكن من منعها، وفهمت ما تعنيه هذه الكلمات قبل أن يقول سيرجيو ببرود:

ـ حسناً جداً إذن.. سأفتشك بنفسي.

ـ لا!

أطلق احتجاجها العاصف ضحكة قاسية من ليديا..

وقال سيرجيو لها:

ـ أعطيني المقص، وانزلي إلى تحت لتساعدي لينو في المراقبة.

أحست نادين بأن الإيطالية مترددة في تركهما بمفردهما، ولكن من الواضح أنها لا تجرؤ على تجاهل أوامر سيرجيو.. بعد خروج الإيطالية لم يتحرك سيرجيو من مكانه للحظات، ثم قال ببرود:

ـ الآن، تعالي إلى هنا ولننه الأمر.

ـ لن تلمسني!

كان في صوتها هذه المرة بعض التردد وراحت تتراجع نحو الزاوية، مع أن سيرجيو لم يتحرك.

ثم تحرك.. تحرك بسرعة جعلتها مسمرة بين ذراعيه. كانت أنفاسه باردة على جبهتها، وكانت عضلاته قاسية تحت قميصه المشعث النظيف ووجدت نفسها تتساءل كيف يمكنه من بين الجميع البقاء نظيفاً مرتباً.. في الوقت نفسه الذي كانت فيه تتوسل، ويدها تبعده عنها بضعف قائلة:

ـ لا!

* * *

٤ - بين الموت والرغبة

ازداد صوته برودة عندما قال: «أريد تفتيشك لا اغتصابك».

ردت بمرارة:

- ولماذا لا تجمع بين الاثنين؟ أليس هذا ما يفعله أمثالك من الرجال عندما يريدون مأرباً ما؟

كان صوته ناعماً. ولكن عضلة في فكه تحركت متوترة.. وأحدق خط أبيض بفمه. وتابع يسأل:

- هل أنت واثقة أنك لا تطلبين هذا بالضبط.. إن للفتيات المدللات مثيلاتك سمعة.. آه.. لا.. لن تفعلي هذا..

أمسك يدها بسرعة عندما رفعتها لتضربه، وأنزلها إلى تحت، ثم شدها بدون رحمة إليه.

كان تأمله الخبير لجسدها أكثر التجارب إذلالاً.. وعندما أبعد يديه عنها كانت نظرة عينيه متجهمة.

- أرأيت؟ لست ممن يسيطر على رغباته، أليس كذلك؟

- أنت.. أنت.. لا تطاق! وأنا.. أكرهك!

أوشكت دموعها على الانهمار فارتدّت عنه لئلا يراها:

- نادين؟

أهذه مخيلتها أم أن صوته رقيق فعلاً؟ ارتدّت على عجل وارتباك، وكادت تقع، فامتدت يده تتمسك بها ثم التفت ذراعه على جسمها

فشعرت بما يشبه الصدمة الكهربائية تنطلق لترجفها. اتسعت عيناها وازدادت سرعة نبضات قلبها بإثارة، وارتفع اللون الأحمر إلى وجهها بسبب شعورها بالذنب.

وصاحت:

ـ اخرج من هنا! ولا تلمسني! لا أطيق لمستك!

ولكن قولها هذا كان غلطة فادحة إذ سرعان ما أصبحت عيناه وقحتين ساخرتين.

ـ لا؟.. أستطيع القول إن ذاكرتك بدأت تخونك نادين وأعتقد أن أكثر ما يعجبك حقاً هو أن تضمك ذراعاي وتلمسك يداي.

ـ لا!

كرر مبتسماً:

ـ لا؟ إذن فلنخضع هذا الإنكار للتجربة، أنفعل؟

احتواها بين ذراعيه قبل أن تتحرك.. فأبقت شفتيها مطبقتين بشدة، تحاول التفكير في أن لينو هو من يعانقها. ودفعت جسدها ليحس بالاشمئزاز والثورة، لا بالسرور ولكن أصابعه الرشيقة بثت الحرارة في بشرتها.

أحست أن هذا كله لم يكن كافياً.. وتجاهل إحساس متمرد قراراتها في المقاومة والرفض. لكنها أخيراً تمكنت من انتزاع نفسها وقد رافق ذلك صرخة احتجاج.

ـ سيرجيو؟

ابتسم سيرجيو لها عند سماعه نداء ليديا، وابتعد نحو الباب تاركاً نادين تغلي غضباً واحتقاراً لنفسها. ماذا دهاها؟ كيف استجابت إلى مداعباته؟ إنها تكرهه!.. ومع ذلك استجاب جسدها له. لماذا؟

حين تأكدت أنها أصبحت بمفردها، استسلمت للدموع، راحت تبكي بصمت فانتفض جسدها وانتشرت حول وجهها خصلات شعرها

الأحمر القاتم الحريري ولكن لم يكن فقدانها شعرها الحريري الناعم هو ما يحزنها، بل شيء أعمق، وأصعب على الفهم. عندما لمستها يدا سيرجيو انتفض شيء ما في أعماقها والمؤسف أنه شعر به. ففي إحدى اللحظات، قبل أن تبدي مقاومة نظر إليها وعرف أن جسمها رغم منطقها وكبريائها يرغب في الاستجابة للأمر الرجولي الذي في يديه.

كانت حقيبة يدها معها، فتشت فيها عن مناديل ورقية.. ليتها فكرت في وضع قميص آخر معها.. فبعد جفاف دموعها أحست بالحرارة وبالعرق. كانت ساقاها متسختان ولم يكن في الغرفة ماء لتغتسل وباستثناء سيرجيو، لم يكن آسروها يهتمون كثيراً بضروريات المدينة والنظافة الشخصية، حتى ليديا.. ولكن نادين كانت موسوسة بمظهرها ولأنها لم تتمكن من الاستحمام أو من تنظيف أسنانها شعرت بالقرف.

هناك نهر في الوادي.. شاهدته من النافذة الأمامية. ورؤية الماء المتدفق بنعومة، زاد من شوقها إلى برودة الماء ونعومته على بشرتها.. وتساءلت عما إذا كانت قادرة على طلب طست للاغتسال. ولكنها تعلم أن ليديا سيسعدها رفض مطلبها أما الطلب من لينو فمرفوض عندها بسبب نظرة ذاك الرجل إليها، وأما سيرجيو فتخشى إن طلبت منه ذاك المطلب أن يظن أن لاهتمامها بالنظافة علاقة به!

ومر النهار وهي جالسة بمفردها بدون عمل يشغلها يدوياً أو فكرياً، وهذا ما زادها خوفاً ورعباً وإحباطاً ولعل سبب الإحباط اقتناعها بأن حياتها ستنتهي هنا في هذا المنزل المهترىء.

بعد الظهر سمعت تحركاتهم في الطابق السفلي ولكنها لم تر أحد منهم ومن النافذة شاهدت لينو يعمل في كروم العنب، فدعت إلى الله.. أن يرسل الشرطة الذين إن وصلوا عمدت إلى إخبارهم الحقيقة ولو أدى ذلك إلى قتلها. وعندها تكون قد قامت بمحاولة ولكن ربما

تسببت في مقتل آخرين كذلك! وهذا ما لن تتحمله.

كانت قد شاهدت سيرجيو ينطلق بسيارته بعد وقت قليل من تركه لها، ثم عاد عند المغيب. لا شك في أنه ذهب ليرسل الصورة والشريط إلى أبيها. حاولت نادين التفكير كم من الوقت سيمضي قبل أن يتلقوا الرد منه. إنهم بالطبع لن يرسلوا الصورة والشريط مباشرة لأن ذلك سيسهل في اقتفاء أثرها.. إذن ماذا فعل سيرجيو؟ هل أرسلها إلى روما لتنقل من هناك إلى عنوان والدها؟

بعد عودة سيرجيو بنصف ساعة أتت ليديا تفتح الباب فتصاعدت روائح تثير الشهية من الأسفل، فأدركت نادين مستغربة أنها تتضوّر جوعاً. وقالت ليديا بعدما دفع بيدرو حاجبيه تعجباً للرائحة:

ـ اشترى لنا سيرجيو المعكرونة والصلصة لنطبخها.

لاحظت نادين أن بيدرو ولينو جلسا إلى المائدة بدون أن يغسلا أيديهما ودون أن يبدلوا الجينز المهترىء بما هو جديد أو نظيف. ولكن سيرجيو كان يرتدي قميصاً أبيض نظيفاً، غير مزرر عند العنق، كما لاحظت أنه استخدم الحنفية الوحيدة ليغسل يديه قبل الجلوس إلى المائدة مع أنه لم يكن يعمل كالآخرين.. وحذت نادين حذوه بدون أن تطلب الإذن، وعندما انساب الماء على يديها أغمضت عينيها بسعادة.

سمعت ليديا تسخر:

ـ حساسة جداً.. أليس كذلك؟ تحاولين التأثير في سيرجيو بتصرفات السيدة الأنيقة.. صحيح؟

ردت نادين بهدوء ساخر يحاكي سخرية الفتاة:

ـ يحب بعضنا النظافة والانتعاش.

لمعت عينا الفتاة بشكل خطير:

ـ ماذا تعنين بالضبط؟ سيرجيو.. أكانت سجينة أم لا.. لن أتحمل إهانة هذه الفاسقة الصغيرة.. فإما أن تطلب منها المحافظة على

أدبها أو أقوم أنا بتأديبها؟

عرفت نادين أن الفتاة تعمدت إثارتها . . ولكن لماذا؟ ألكي تسنح لها الفرصة لتعرضها للمزيد من العقاب الجسدي؟

لاحظت نادين أن ما من أحد آخر تجرأ على تحدي أوامر سيرجيو، وكان بيدرو بطريقة ما بعيداً منعزلاً عنهم جميعاً بما فيهم ليديا التي كانت عشيقته بدون شك.

كان الطعام لذيذاً مدهشاً، المعكرونة طرية وزكية الرائحة وما أذهلها أن تتناول صحنها كله. . فقد يكون رأسها يائساً في تفكيره ولكن جسمها يحتاج إلى الغذاء. فيما بعد رافقها سيرجيو إلى «غرفتها». ما إن دخلتها حتى انتظرت سماع صوت إقفال الباب، واستدارة المفتاح في القفل. . ولكن ما أدهشها أن سيرجيو بقي واقفاً.

سمعته بعد قليل يقول متردداً، أو هكذا بدا لها:

ـ أستطيع إقناع ليديا باصطحابك إلى النهر لتستحمي إذا شئت؟

فسّرت نادين لهجة الإشفاق في صوته على غير محلها وهذا ما دفعها إلى القول بمرارة:

ـ ما الأمر؟ هل تزعج ثيابي القذرة وجسدي غير النظيف أحاسيسك المرهفة؟ أمر مؤسف! يجب أن تتعلم العيش مع قذارتي.

ما إن تفوهت بالكلمات حتى ندمت عليها لأنها تمنت لو قبلت عرضه بلا تعليق، ولكن الوقت فات على سحب قولها المتسرع، فقد ارتدَّ سيرجيو إلى الباب، يهز كتفيه بدون اكتراث:

ـ فليكن ما تريدين. . فكرت فقط في أنك سترحبين بفرصة لإنعاش نفسك. . بدءاً من مساء الغد سيرافقك أحدنا فيجب أن تخرجي وإن لم تخرجي طوعاً أجبرناك.

سخرت منه:

ـ لم كل هذا الاهتمام بصحتي! لماذا؟ أتظن أنني لا أعرف أن لا

فرصة لي بالخروج من هنا حية؟

كان صوتها مشبعاً بالكآبة والألم وانعكس هذا في عينيها وهي تنظر إليه. بدا لها لهنيهة بأنه فهم، وأراد أن يواسيها، ولكن لا بد أن هذا مجرد وهم بصري، فقد تحرك وكانت عيناه باردتين وقاسيتين كحالهما دائماً. وسألها بصوت ناعم:

ـ وإن لم تخرجي من هنا على قيد الحياة، فماذا ستفتقدين؟ ذراع عشيق آخر أم الإحساس بالحرير الفاخر على جسدك؟ أم لمعان الجواهر؟

ردت بصوت خشن:

ـ لا شيء من هذا كله. . ما سأفتقد إليه هو تنشق الهواء النقي مرة أخرى، الهواء غير الملوث بأنفاس الحيوانات أمثالك. . حيوانات!

ضحكت بجنون هستيري:

ـ الحيوانات لا ترتكب بحق بعضها بعضاً هذه الجرائم. هي لا تدمر وتقتل في سبيل المال. كم من المال طلبت من والدي؟

ـ مليون جنيه. . إنه مبلغ رائع أليس كذلك؟

ـ وهل خططت لهذا منذ البداية؟ منذ الحفلة الراقصة في روما؟

ـ أجل.

كان الاعتراف جازماً، يرفض الإفصاح عن أي ندم أو عطف.

ـ ورغم علمك بما سيجري كنت قادراً على. . على. .

ـ العبث معك؟ كان أمراً ضرورياً، ولم يكن صعباً.

تحركت عضلة في فكه النحيل الأسمر، وتابع ساخراً:

ـ أنت امرأة في غاية الجاذبية وكان الجو مؤاتياً وما من إيطالي أصيل قد يفعل غير هذا؟

صاح بها عقلها الباطني: «غبية. . غبية!» لقد صدقت أن ما جرى إياهما عنى له شيئاً. . لقد صدقت كمراهقة مجنونة.

ـ أنت مجرد آلة لا رجل!

خالته لبرهة سيضربها ولكنه نظر إليها متجهماً، وقال بهدوء:

ـ تكرهين نفسك لأنك تستجيبين لي. لا تكرهي نفسك.. فاستجابتك ردة فعل طبيعية في تلك الظروف. امرأة لها تجربتك لا بد أن تستجيب، خاصة لرجل..

ـ حاول إغوائي؟

هز كتفه:

ـ هذا يدل على براءة كلانا يعرف أنك لا تملكينها، وستكون الأمور أسهل لو توقفت عن المقاومة. فأنا لا أرغب في إيلامك أو إذلالك.

أسكتته ضحكتها المريرة فمد يده إليها يمسك ذراعيها.

ـ اسمعي..

انتزعت نفسها من قبضته، وسألت بغضب:

ـ ماذا تحاول أن تفعل؟ أن تغار ليديا؟ لماذا لا تدعوها إلى هنا لترى...

ـ أنت مصممة على إزعاجي... أليس كذلك.. أم أن هذا ما تريدين حقاً.

اشتدت قبضته عليها بسرعة وشدها إلى صدره، وتحركت يداه من كتفيها إلى ظهرها، يضمها إليه. كانت إحدى يديه تلتف على مؤخرة عنقها تجبرها على إحناء رأسها، والأخرى تلصقها به.. فصاحت: «لا».

اختنق احتجاجها المتأوه على صدره وحينما استكانت بين ذراعيه أدركت كم أثارت غضبه.. فمن الواضح أنه رجل غير معتاد على أن تنتقده امرأة.. حاولت مقاومة اللامبالاة الذائبة التي راحت تتسلل إلى جسدها.. واستطاعت تذوق طعم الدم المالح في فمها من شدة ما

ضغط وجهها على صدره.. ولكن لم تلبث أن استرخت ذراعاه قليلاً فعمّت كيانها موجة ارتياح أفزعتها وتركتها ضعيفة مرتجفة غير قادرة على فهم ما يحدث لها.. إنها تكرهه.. تحتقره!

سألت بصوت متحشرج أجش: «ماذا تحاول أن تفعل؟».

ابتسم مكشراً عن أسنانه:

ـ قد أسألك السؤال نفسه.

أصمتها سؤاله لبرهة ثم انطلقت إلى النافذة تسير على ساقين تهددان بالانهيار، لتتأمل الطبيعة خارجاً. لماذا تختبر مثل هذه الجاذبية الغامرة كلما اقترب سيرجيو منها؟ إنها تكره الرجل وتحتقره، لكن جسدها يتوق إليه.

قال سيرجيو يكسر الصمت ساخراً:

ـ إن رغبت في التجربة مجدداً، فتجنبي أن تختاري لينو لأنك قد تحصلين على ردة فعل لا تتوقعينها.. إلا إذا كانت ليديا على حق، وكانت المعاملة القاسية الخشنة هي ما تجتذبك أهذا هو الأمر؟ أهذا ما تأملين فيه؟ لا ريب أنك كنت تشاهدين أفلاماً سينمائية كثيرة. قد تكونين مرغوبة، ليس بالنسبة لي.. حين أرغب في ذلك أحب أن أكون بين ذراعيّ امرأة عطرة الرائحة.

سحب التهكم كل لون من وجه نادين، وسألت بشراسة:

ـ ألهذا تقوم بمثل هذه الأشياء؟ لتبقى قادراً على أن تعيش في مستوى راق؟ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نعقد اتفاقاً مفيداً؟

كان قد طرأ على بالها فكرة ما، وقبل أن تفقد شجاعتها حاولت وضعها قيد التجربة.. ابتلعت الخوف المتزايد في نفسها، ومالت إلى الأمام قليلاً، بشفتين منفرجتين وأصابع راحت تتسلل إلى الشق في قميص سيرجيو:

ـ مليون جنيه مبلغ كبير، إن كان لك وحدك.

لم يتحرك، ولم تفصح عيناه عن شيء. سأل: «ماذا تقترحين؟».

كان أشبه بتمثال غرانيت لا يلين، فأردف: «الخيانة؟».

هزت كتفيها محاولة الظهور بمظهر المرأة الهادئة المسيطرة على الموقف.

- ولمَ لا؟ هل ستقول إنها كلمة شرف بين لصوص؟

قالت هذا بعذوبة ولكن السهم أصاب هدفه.. فقد سارع إلى إبعاد أناملها عن قميصه بقسوة وظهر على وجهه التحفظ.

- وإذا وافقت؟ وإذا أردتك أنت إضافة إلى المليون جنيه مثلاً؟

استقرت غصة ثقيلة في صدرها سببت لها ألماً شديداً.

- أنا.. نحن.. قد نصل إلى اتفاق ما.

أخافتها نظرة عينيه، فمدت يدها إليه فوجدت أنه وضع عرض الغرفة حاجزاً بينهما، والتوى فمه بازدراء.

- يا إلهي.. كل شيء سيان عندك.

لاحظت نادين صدره يعلو ويهبط تحت القميص الأبيض الرقيق، وكأنه يلهث من الركض.. بعثت قوة الغضب الذي استحوذ عليه الخوف إليها. مع أنها لا تعلم ماذا فعلت ليغضب هذا الغضب كله.

ثم قال لها ساخراً:

- من تخدعين بحسب رأيك؟ أتحاولين القيام بتضحية؟ يا لها من تضحية! أنت تريدينني.. ولكنني لن ألمسك حتى لو كنت آخر امرأة على وجه الأرض. أتظنين أنني لا أعرف ما يدور في خلدك؟ ألا تعتقدين أنني أعرف كل شيء عن الإثارة التي تحصل عليها امرأة مثلك من مجرد التفكير بأنها ستغتصب بالقوة؟ إذا كان هذا ما تريدينه حقاً، فلينو هو الرجل المناسب لك، لا أنا.. فأنا أحب أن تكون علاقاتي سويّة.

خرج قبل أن تتمكن من الرد تاركاً لها الإحساس بالألم والذل

بسبب رفضه. آمنت لهنيهة إنها ستتمكن من استخدام الفدية طعماً لانقسام آسريها.. ولكنه قلب كل الطاولات في وجهها مشيراً إلى أنها تحاول إقناعه باغتصابها.

صاح بها هاتف داخلي.. لأجل ماذا كل هذا؟ ودافعت بمرارة: إنها لا تريده.. إنها تكرهه.. إنها تحتقره!

مضى على سجن نادين أربعة أيام. الأمل الذي تمسكت به في البداية تلاشى تاركاً مكانه شعوراً فاتراً باللامبالاة. وجرت الأيام برتابة مملة ففي الصباح تقفل ليديا باب غرفتها بعد أن تقدم لها الماء للاغتسال، ثم ترافقها إلى كوخ بدائي صغير بعيد عن المنزل.. في البدء عانت مرارة الإحراج كلما اضطرت إلى تحمل هذه المهانة، ولكن السجن والطعام البدائي الذي كانت تتلقاه، سلباها قدرتها على المقاومة.

قبل النوم، كانت كل ليلة تغسل الثياب التي تلبسها نهاراً، ومع أنها كانت تجف ليلاً، إلا أنها بدأت تبدو الآن رثة، وأحست بالحرمان والوضاعة. لكن اهتمامها بمظهرها، كان قد اتخذ مقعداً خلفياً بالنسبة لخوفها على مصيرها.

كان الجميع في الأمسيات يتناولون الطعام في الغرفة السفلى وغالباً ما كانت نادين تحضر ذلك الطعام تحت أنظار الحرس، اليوم كان سيرجيو غائباً وأحست بغيابه مع أنها لم تكلمه منذ فتشها.. في البداية جعل تجنبها الواضح له ليديا تضحك، ولكن نادين وجدت الفتاة الأخرى تراقبها وكأنها تجد صعوبة في فهم قدرتها على اللامبالاة.

ولكنها لم تكن غير مبالية خاصة في أسرها الحالي بل كانت كرامتها له تتعاظم حتى تكاد تسلبها القدرة على التفكير في أي شيء آخر.

وصل سيرجيو فيما كانت نادين تتفحص العنب مع لينو، وهذه

عملية تكسر الظهر. . وما أشد ما رغبت في الاستقامة لتريح ظهرها لولا خوفها من أن يعتبر سيرجيو حركتها انهزاماً. كان كلاهما متورط في معركة إرادات صامتة، وكانت تعلم أن صمتها يغضبه فهذا ما تراه في عينيه.

وهذه المعرفة بعثت إليها لذة منحرفة. كان يريد أن يحطم إرادتها، ويريد أن يبعث الخوف إلى قلبها. ولكنها لن تحقق له ما يريد، ولن تنضم إلى صفوف ضحاياه!

صاح بها لينو عندما توقفت عن العمل بدون أن تستقيم أو تتمطى.

ـ ما بك؟ هل أنت ضعيفة أمام العمل الشاق؟

كان أفراد العصابة دائمي السخرية منها ولكنها تعلمت القوقعة على نفسها بعيداً عن تهجماتهم، مع أن غريزة وليدة عميقة، كانت تحذرها من لينو الذي كانت ليديا تتعمد تركه معها وكانت كبرياؤها تمنع نادين من تصحيح ما تقول حين تلمح لسيرجيو إنها أمضت معظم يومها معه.

وفي الواقع كانت تفضل البقاء سجينة غرفتها، ولكن سيرجيو أصر على أن تمضي نهارها في الخارج، وفي الهواء الطلق لتحرك أطرافها، ولم تستطع فهم السبب. لكنها باتت الآن مقتنعة بأنها لن تترك المزرعة وهي على قيد الحياة. كان سيرجيو يذهب يومياً إلى البلدة القريبة لتسقط الأخبار عن أبيها. . وقد حدث أن طلبوا مهلة أسبوع للرد، ومرت خمسة أيام منها. وحاولت نادين أكثر من مرة أن تتصور حالة والدها والتوتر الذي يعاني منه. ولكن عالمها بات مرتبطاً بحراسها، والتفكير في ما يحدث خارج هذا السجن أصبح مؤلماً ألماً لا تكاد تتحمله وقتاً طويلاً.

ذبحت ليديا إحدى الدجاجات التي كانت تجوب فناء المنزل، وقامت نادين بطهيها جيداً وحينما دخلت ولينو إلى المنزل انبعثت رائحة الدجاج الشهية، وكان سيرجيو يقرأ جريدة، وليديا قربه

وذراعاها حوله. . فرفع رأسه، فأشاحت نادين نظرها عنه، وفمها مشدود قرفاً. . فقال لها:

ـ أظهر والدك على الأقل بعض التعقل. . فليس في الصحف ما يشير إلى اختفائك. ثمة خبر صغير في صحيفة لندنية، يقول إنك تقضين إجازة مع أصدقائك.

سخرت ابتسامته منها وأثارتها ولكنها رفضت الرد. بدأت تسير نحو السلم وكادت تصل إليه حين امتدت يده تمسك معصمها. فذعرت وارتدت نظرتها لتلتقي بعينيه، وتصادمت عيونهما. كانت ترى بشرته السمراء المغطاة بالشعر تحت القميص الأبيض الشفاف فتحرك شيء ما في داخلها. شيء غريب، غير مرغوب. وجذبت نفسها عنه بتوتر ويأس لتتخلص من الإحساس بقربه. .

فسألها: «إلى أين؟».

ـ إلى غرفتي.

ـ لماذا؟

ـ لأنني أريد الانفراد بنفسي. . هل من اعتراض؟

صاحت ليديا:

ـ فلتذهب سيرجيو. . لا يمكنها الفرار، ولن تحاول. إنها أضعف من أن تحاول. . فطوال حياتها كانت تستخدم مال أبيها واسمه لتنفتح الأبواب لها. وها قد باتت الآن غير قادرة على فتح أي باب بنفسها.

هذا غير صحيح!

تكونت الكلمات على شفتيها، ولكنها لم تتفوه بها. . فقد جعلتها الكبرياء تلوذ إلى الصمت ومنعتها من القول بأن هذا الاتهام كان صائباً منذ سنة أما الآن فلا.

ـ سيرجيو!

جعل نداء بيدرو الملح من الخارج ليديا ولينو يخرجان ودفع

سيرجيو إلى أن يترك ذراع نادين وهرع إلى الباب. سمعت نادين كلمة «شرطة» فقفز قلبها أملاً. هل أتوا بحثاً عنها؟ هل بلغت باميلا عن غيابها، وهل أدرك الشرطة ما قد حدث لها؟ آه، ليتها تستطيع جذب انتباههم بطريقة ما!

طغى التوتر على المنزل المتداعي عندما كانت سيارة الشرطة تتقدم في الممر الضيق الموصل إليه. السلاح الذي كان دائماً ظاهراً، ابتعد عن الأنظار، وحده لينو كان يتلاعب بسكين. وعندما سمعت السيارة تقف جف حلقها. فجأة انفتح الباب بشدة، ودخل رجلان يرتديان بزتيهما وراح يتأملان الغرفة العفنة.

وسأل أحدهم: «لستم هنا منذ مدة؟».

كان سيرجيو يستند إلى الجدار أمامها مشكلاً حاجزاً بينها وبين الشرطيين أما ليديا فتسللت إلى الطابق العلوي.. وعرفت نادين أن سيرجيو لم يكن يبالغ في تهديداته، وأنه قد يطلق النار عليها وعلى الرجلين ولكنها رغم ذلك لم تكن قادرة على ترك الفرصة تمر بدون محاولة تحذير الشرطيين.

قال سيرجيو:

ـ ورثت المزرعة عن خالي.. إنها مهدمة ولكننا سنصلحها.

ـ أنتم لستم من هذه المنطقة؟

هز سيرجيو كتفيه:

ـ نحن من روما.. لكنني أفضل الريف على المدينة. وكذلك إخوتي.

توجهت عينا الرجل إلى نادين حينما راح زميله يجوب الغرفة..

ثم سأل سيرجيو:

ـ أهذه شقيقتك؟

كانت نادين من حسن الحظ تفهم وتتكلم الإيطالية، فتدخلت

بسرعة: «لا، أنا..».

رد سيرجيو بأسرع منها: «إنها زوجتي».

ارتد إلى الخلف يحيط كتفي نادين بذراعه، ولكنها أحست بضغط أصابعه المحذرة على لحمها، وقال مردفاً:

ـ أتبقيان لمشاركتنا طعامنا؟

رفض الرجلان الدعوة، وعادا إلى الباب، فاستدارت نادين بفزع في دائرة ذراعي سيرجيو.. ترجو الله أن يلاحظ أحدهما الكرب الذي تمر به.. ولكنهما خرجا برفقة لينو إلى سيارتهما، وظلت هي في مكانها تشعر بالغثيان يسيطر عليها. لقد ولّى آخر آمالها، واستحوذ عليها إحباط شامل.

تركها سيرجيو في اللحظة التي برزت فيها ليديا من الطابق العلوي، وعيناها مركزتان عليهما بريبة. ورأت نادين بوضوح أنها تفار، ولكنها لم تكن تملك القدرة على الاستفادة من هذا الاكتشاف، إذ استحوذ عليها إحساس بأنها ستموت فمهما فعل والدها، فلن يتمكن من إنقاذها... وارتجفت، فتجهم وجه سيرجيو بعبوس شديد. لماذا يدعي الاهتمام بها؟ يعرفون جميعهم أنها مجرد وسيلة للكسب لجمع المال لقضيتهم.. لامست بشرة وجهها حيث صفعها، وأحست بالكراهية تتجدد.

فقدت نادين شهيتها للدجاج المطبوخ، ولم تكن قد أكلت الكثير وقت الفطور كذلك. وعندما أمرها سيرجيو بأن تنهي وجبتها اضطرت لكبح ضحكة مريرة.

ـ لماذا؟ ستقتلوني على أي حال، فلِمَ لا أقوم بهذا نيابة عنكم؟

ضحكت ليديا:

ـ إنها ليست غبية كما ظننت.. أم تراها تحاول اجتذاب شفقتك «كارا» عزيزي.. لا بد أنها قرأت الكثير عن العلاقات التي تتطور في

مثل هذه المواقف بين الآسر والضحية.

تجاهل سيرجيو كلام ليديا وقال بإصرار لنادين: «يجب أن تأكلي...»

ثم التفت إلى لينو متسائلاً: «أحظيت بقدر كاف من التمرين؟».

هز الرجل كتفيه: «كانت تعمل في الحقل بعد الظهر».

أضافت ليديا: «وفي كل ليلة يرافقها أحدنا عندما تسير».

التفت سيرجيو إلى نادين:

ـ ستأكلين، وإلا اضطررت إلى إطعامك بنفسي.

قاطعته ليديا: «أسمعت شيئاً عن لندن؟ أكان..»

ـ ينفذ والدها حتى الآن جميع تعليماتنا حرفياً. إنه يحاول جمع المال، ويأمل الحصول عليه في الوقت المحدد.

لمعت عينا ليديا السوداوان:

ـ يجب عليه ذلك وإلا أرسلنا ابنته قطعة قطعة.

حين دفعت نادين طبقها بعيداً هذه المرة، لم يحاول سيرجيو منعها.. وأدلى لينو برأيه:

ـ كلما انتهينا من هذا بسرعة كلما كان أفضل.. ضقت ذرعاً بهذا المكان..!

كان الظلام قد خيّم على الطبيعة خارجاً فانبعثت أصوات الجنادب بلا توقف، ورمت الفراشات الصغيرة بنفسها على النوافذ سعياً وراء الضوء. ما إن انتهت وجبة الطعام، حتى قال سيرجيو لنادين:

ـ تعالي.. سأسير معك الليلة.

أرادت أن ترفض، فقد أحست بعيني ليديا تخترقان ظهرها وكأنهما خنجران، وشاهدت لمعان الامتعاض في عيني لينو.. لكن ليديا اعتادت على التسلل بعيداً في الوقت المفترض بها السير معها وكانت تتركها وحيدة مع لينو الذي كانت عيناه تستمران بالتحديق إلى جسدها

بشغف.

عندما خطت إلى الخارج أحست بالعرق الذي يبلل بشرتها فتمنت لو تستحم مهما كلفها الأمر.. منعت نفسها من الضحك بسخف لأنها تذكرت نكات يدور موضوعها عن الموت. بدا لها أن دهراً قد مرّ منذ ضحكت آخر مرة بشكل طبيعي، وبدأت تفهم كيف يعمل الرهبان في أديرتهم، بعيداً عن العالم.. فتحت رحمة غرباء، كان من السهل أن يحس المرء بحكمته تتلاشى وبإرادته تتحطم.

وجهها سيرجيو ناحية النهر، وكأنه قرأ ما يدور في خلدها من أفكار، فأراد أن يزيد من عذابها. كانت رائحة جسده تتناهى إليها مع رائحة الريف.. وكانت أحاسيسها مركزة عليه حتى ضاقت منها.

لم يقترح من جديد فكرة الاستحمام في النهر، منعتها كبرياؤها من الطلب كما رفضت أن تطلب منه شيئاً، مهما كان ضرورياً.

ـ أتعلمين.. أنت مختلفة عما كنت أتوقع.

فاجأها التعليق الهادىء، وكادت تفقد توازنها حين وقفت في الظلام تنظر إليه بحثاً عن السخرية في وجهه ولكنها لم تجد شيئاً. فسألت: «كيف؟».

جعلت، عباءة الظلام الكلام أسهل، ودفعت الكراهية بعيداً قليلاً. أحست به يهز كتفيه:

ـ في كل يوم.. تبدين أكثر ضعفاً، مع ذلك أقوى، وأكثر مرونة.

توترت نادين وتشنجت لأنها شكت في أنه ينصب فخاً لها، وقالت بصوت مرير حاد:

ـ ألم تجد أنني تلك المدللة الثرية التي كنت تتوقعها؟ لست ابنة «دادي» المدللة التي كنت مؤمناً أنها قادرة على شراء أي شيء؟ لست غبية، أعرف المواصفات، وأعرف سبب وجودي هنا. وإذا كنت تتوقع أن أركع أمامك متوسلة حين أعرف أنك ستقتلني..

- وإذا لم تعرفي؟

- أهذا ما تريد؟ أن أزحف باكية؟ لماذا؟ أيسعدك هذا؟ أنا لم أتوسل إلى رجل قط في سبيل أي شيء، ولن أبدأ بهذا الآن!

- ألم تتوسلي قط إلى رجل؟

التفت إليها فشاهدت تحت نور القمر السخرية تتسلل إلى قسمات وجهه القاسية، وقال بعذوبة:

- ليس هذا ما سمعته عنك.. فالكلام الذي يدور حولك يقول إنك أسهل الفتيات على الإطلاق، وأفضلهن.. فتاة قوية، تعرف كيف تحصل على الرجل حين تريده.

- لكنني لا أريدك!

كان الرد الأجش فظاً خالياً من الانفعال فقد آلمها مجرد الإصغاء إلى ما قاله، كانت تعرف ما هي سمعتها بالطبع.. واستولى عليها إحساس سقيم وهي تتذكر كيف ظنت أن هناك شيئاً مميزاً بينهما...

قالت له بمرارة:

- حتى المريضة جنسياً قد لا ترغب في أي رجل قد تقع عليه عيناها.. ماذا تعمل حين لا تعتمد على الخطف من أجل معيشتك؟ أتؤجّر نفسك للمليونيرات من العجائز؟

شهقت حين أمسك بها تحت ذراعيها، وهزها بعنف. ثم أنبأتها نظرة واحدة ألقتها على تعابير الغضب البارد على وجهه إلى أنها تمادت كثيراً.. ولكن، هل تمادت إلى درجة أن يرغب في قتلها الآن؟ فجأة أرادت أن تتوسل إليه لئلا يعذبها قبل أن يقتلها. اسودت عيناها بثقل مشاعرها، أبرزت هذه القصة البشعة بنية وجهها وضعف جسدها شديد النحول بعد أن خسرت بعض الوزن.

- نادين...

سرعان ما أشاحت بعينيها عنه كارهة رنة الشفقة في صوته، رافضة

إياها. وقالت بلؤم:

- ماذا دهاك؟ أتفكر ثانية؟ لماذا لا تذكر هذا لليديا.. ستكون أكثر من سعيدة إن تخلصت مني بل ستجد متعة عظيمة في قتلي.

كان الغضب المرير هو ما دفعها للتفوه بهذه الكلمات ولكنها أحست بتوتر جسده الذي تجاوب مع كلماتها، وقال بعذوبة:

- ربما ستفعل هذا.. وإذا كنت تحاولين دفعي إلى أن أفقد السيطرة على نفسي..

صمت ثم تمتم بشيء من بين أسنانه في الوقت الذي كشف فيه ضوء القمر الاحتقار في عينيها.. ثم أصبحت بين ذراعيه، تحس بالحرارة تتصاعد من جسده كما شعرت بإحدى يديه تتعقب خطوط عنقها، وبالأخرى تشدّها إليه.

حاولت المقاومة، لكن قوته كانت عظيمة.. وتصاعد الذعر في أعماقها حينما شعرت بيده تجول على ظهرها، لكنه كان خوفاً سرعان ما أخلى الطريق لمشاعر أخرى.

نسيت كل ما قادهما إلى هذا العناق وكل ما حدث بينهما، وما جعلها تكون في هذا المكان..

أرادت أن تدفعه عنها، ولكنها بدت عاجزة، وارتفعت ذراعاها لتلتفا حول كتفيه.. وتصاعدت آهة حارة من أعماقها وراحت تشده إليها.. وانحنى رأسه ببطء إليها، فانطلقت في جسدها كله ثورة من التوتر، وكان أن اشتدت أناملها الظمأى على شعره الأسود.

- سيرجيو!

أجفلهما صوت مرتفع حاد. وكانت ردة فعله أسرع منها.. فتركها متراجعاً إلى الوراء في اللحظة التي وصلت فيها ليديا إليهما.. ولكن نادين لم تظن للحظة واحدة أن الإيطالية خدعت..

قالت ليديا:

- قلقنا عليكما . . لقد مضى على خروجكما وقت طويل .

تشدق سيرجيو ببرود :

- قلقتم؟ أم تملككم الفضول؟

صاحت ليديا بشراسة ، تهجر ضبط النفس فجأة .

- كنت تغازل هذه الساقطة الصغيرة!

- ما ذلك بجريمة وقد نطلق على ذلك اسم الواجب . ولكنك بكل تأكيد لا تغارين «كارا»؟

كان يتعمد إغاظة الفتاة، مع أنها لم تفهم السبب، ولا فهمت كذلك ما الذي دفعه إلى أن يعانقها بتلك الطريقة . شعرت بأنها ما زالت تحترق بنيران ذاك العناق ولكنها مهما وبخت نفسها الآن لن تتمكن من إنكار تجاوبها معه . ولكن لماذا كانت هذه الرغبة من حظ سيرجيو في وقت تشعر بالبرود تجاه جميع الرجال الذي تعرفت وتتعرف إليهم؟ كانت في حالة شحن عاطفي قوي وقد فضحتها هذه العاطفة .

وفيما كانت غارقة في أفكارها، لم تشعر بالغضب المطل من عيني ليديا . ولكنها شعرت أثناء العودة إلى المنزل بذلك حين دفعتها ليديا متعمدة حتى كادت تقع . . لقد جعلت منها عدوة لدودة خطرة . أما النظرة التي رمقتها بها عند دخولهم إلى المنزل فكانت تعد بعقاب شديد لتجرؤها على احتلال مركزها مع سيرجيو .

قالت نادين لنفسها مبارك عليها هذا الرجل . صحيح أنها انجذبت إليه في البدء، ولكن هذا التجاذب لم يدم بعدما عرفت طينته . راحت رغبة الانتقام للمرة الثانية تحرق أحشاءها ولكنه انتقام لن يحدث إلا إذا خططت للعودة من الموت، لتلاحقه . في وقت متأخر من الليل أيقنت أنها تسير إلى حتفها لا محالة . ولكنها في بعض الأحيان كانت تفكر بطريقة من لا يتوقع الموت أبداً . نهرت نفسها فعلى المؤمن المشرف على الموت واجب ديني ألا وهو إعداد النفس له . . ولكن كيف للمرء

أن يهيىء نفسه؟ بالصلاة؟ بطلب المغفرة للأعداء؟ ولكنها لن تقدر على هذا أبداً .

كان الفجر قد أوشك على البزوغ حينما غلبها النعاس . . تهدهد نفسها متظاهرة بأنها طفلة صغيرة، يحضنها والدها بين ذراعيه .

* * *

٥ ـ الجرح

أصمت نادين أذنيها عن إهانات ليديا الحادة وردعت نفسها كالعادة عن الإحساس بالمهانة عندما تراقبها وهي تخلع ملابسها لتغتسل بالماء الذي تزودها به في طست صغير قائلة في كل مرة بسخرية:

ـ لم تعتادي على هذا الأمر، أليس كذلك؟

لكن، هذا الصباح أحست في صوتها بغيظ يفوق المعتاد وعرفت نادين السبب.

عانت ليديا منذ البدء الأمرّين لتّلمح لنادين أنها وسيرجيو حبيبان.. لكن نادين أحست فيما بعد أن الإيطالية لم تكن واثقة من سيرجيو كما تدعي.

سخرت ليديا منها حين لم ترد عليها: «إنه تغيير كبير بالنسبة لك».

كانت نادين تعلم أن ردها سيثير ضربة من نوع ما من ليديا، لذلك تجنبت تشجيعها على ذلك.

ـ أنت الآن لست سيدة مجتمع.. أليس كذلك؟ لن يرغب فيك أي معجب إن شاهدك على هذه الحال. هذا إذا كانوا يرغبون فيك، لا في مال أبيك!

وقعت كلماتها الأخيرة على جرح مؤلم، لم يندمل بعد. فقد

كانت تشك دائماً أن الكثير من معارفها لا يترددون إليها حباً بها بل طمعاً بوالدها. لذلك ردت لا إرادياً وهي تقصد الهزء بليديا:

ـ ما بالك؟ أخائفة أن يرغب سيرجيو في مال أبي فيخونك؟

كانت تعرف أن هذا الإدعاء سخيف ولكنه يستحق مشقة قوله لرؤية غضب ليديا التي انقضت على نادين، وأظافرها تنهش بشرتها الناعمة، تصيح بها بشراسة.

ـ لن يجرؤ.. فستقتله المنظمة.. كما أنه لا يرغب فيك. لقد أخبرني أنه يسلي نفسه بك ليرى ما إذا كنت بارعة في الفراش كما هو مشهور عنك.

شدتها من شعرها بشراسة قبل أن تدفعها بقوة كادت ترسلها إلى الأرض. ولكن نادين ردت بخبث لئيم وهي تقف مستعيدة توازنها:

ـ وأنت، ألا تعترضين؟ أم تراك لا تجرؤين على الاعتراض؟

عرفت أن سهمها أصاب هدفه حين اسودت عينا ليديا، ولكن قبل أن ترد ناداها لينو من الأسفل، فتمتمت ليديا وهي تدفعها إلى الخارج:

ـ حذار، حذار! وتذكري أن سيرجيو لي!

كانت نادين تسير بين أغراس الكرمة المغبرة، تشعر بلينو يراقبها من ورائها وكانت نظراته التي لا تلين قد بدأت تفقدها أعصابها.. لم يكن قد تحرك ليلمسها، ولكنها تعرف أنه يرغب فيها. تعرف وتخاف من هذه المعرفة فهي تشعر بأنه خطير ككلب مسعور.. وكانت بشرتها تقشعر كلما شعرت بعينيه على جسدها.

وقت الغداء أحست بالحرارة والتعب من الانحناء على غرسات العنب، لذا عندما قال لها لينو إن باستطاعتها التوقف عن العمل تنفسّت الصعداء.

قال لها لينو وهما يقصدان المنزل:

ـ عندما يدفع لنا والدك المال، قد أشتري مزرعة كهذه وسأتخذ

لنفسي زوجة ممتلئة.

كانت تعرف أنه يضايقها بكلامه، ولكنها لم تستطع أن تكبح رداً ساخراً:

- ظننت أن المال عائد إلى القضية..

لم تكن تشعر بأن ليديا تتعقبهما إلا بعدما ردت بشراسة:

- قضيتنا هي تنظيف العالم من الأثرياء الطفيليين أمثالك والمشاركة بثرواتهم!

في الوادي قرب النهر لفتت حركة مفاجئة نظر نادين فوقفت تصغي إلى ليديا، وتراقب سيرجيو وهو يخرج من الماء حيث كانت بشرته تلمع تحت الشمس. كان يدير ظهره لهم ولكن نادين شعرت بأنفاسها تنحبس في حلقها وراقبته وهو يسير نحو سيارته. كان رشيقاً كنمر في غابة، بشرته برّاقة كقماش من الساتان البني. ويبدو أنها أصدرت صوتاً صغيراً فضحها، فقد خطت ليديا فجأة أمامها، والكراهية الفجة في عينيها، وقالت من بين أنفاسها:

- أنت تريدينه. أرى هذا في عينيك.. لكنه لي!

التفتت إلى لينو:

- أترى، إنها ترغب فيه كالساقطات!

كانت كلماتها اللاذعة أكثر مما تستطيع نادين أن تتحمل. وإذا بردة فعلها تجعلها تتحرك بشكل غير طبيعي، فخطت إلى الأمام، ترفع يدها...

أمسك لينو بيدها، وجذب ذراعها بشكل مؤلم خلف ظهرها مبتسماً الابتسامة المثيرة الشهوانية التي طالما أوقفت شعر رأس نادين بخوف بدائي.

استطاعت أن تفلت منه صائحة:

- دعني!

أعطاها الخوف القدرة على التحرر منه ولكن خوفها ظل يطاردها طوال الطريق بسبب الطريقة التي كان الرجل والمرأة ينظران إليها.

وقت الغداء توقعت نادين أن تقول ليديا بعض الملاحظات بشأن ما حدث ولكنها لم تقل شيئاً، بل راحت تتحدث إلى لينو وبيدرو أكثر مما تحدثت إلى سيرجيو. فتساءلت نادين عما إذا كانت تحاول إثارة غيرته.. ولكن، لم يكن في تصرفاته ما يدل على أنهما حبيبان.. مع أن نادين شكت في أنهما ربما كانا حبيبين في وقت ما، وأن ليديا تحاول يائسة تجديد علاقتهما الحميمة.

بعدما زار الشرطة المزرعة سمح لنادين بمزيد من الحرية، فمن غير المحتمل أن يعود رجال الشرطة ولم يعد في الحراسة المسلحة سوى شخص واحد. وقد قيل لها إن الحارس سيطلق النار عليها فيما لو حاولت الفرار. ومع أنها تعلم أن مقتلها هو النتيجة الحتمية، إلا أنها لم تستطع دفع نفسها إلى المحاولة التي تعلم أنها ستضع حداً لحياتها.

بعد الغداء أعلن سيرجيو عن حاجته للذهاب إلى البلدة. ولاحظت نادين أنه الوحيد الذي يتصل بروما وبوالدها، ولكنها كانت تشعر بكراهية الآخرين لهذا التدبير ومع ذلك لم يتساءل أي منهم عن حقه في هذا. كان يحكمهم بتأثير الخوف، وهذا سلاح حقير، ولكنه سلاح قوي.

كان قد مضى على خروج سيرجيو ربع ساعة عندما أنهت نادين تنظيف المائدة. في هذا الوقت أعلنت ليديا أن سيرجيو أعطاها تعليمات بأن تحرسها أثناء الاستحمام. وكان رد فعل نادين الاحتجاج.

- لم يخبرني.

ولكن ليديا شخرت وقالت:

- ولمَ يخبرك؟ لا يحق لك أن تناقشي أوامره، كما أنك ستوفرين على بيدرو حمل الماء.

اعترفت نادين بأنها ترحب بهذه الفرصة التي ستخولها الارتماس في الماء. فالغسل البسيط الذي كانت تقوم به في طست الماء الصغير كان أفضل من لا شيء ولكنه لم يكن يفي حاجاتها إلى الاغتسال.

كانت المياه منعشة كما تصورت وكانت قد نسيت ما يشعر به المرء عندما يكون نظيفاً فعلاً. وما أشد ما كانت سعادتها غامرة عندما وقفت والمياه تغمرها حتى الصدر. زودتها ليديا بصابون وببعض الشامبو لتغسل شعرها، الذي ما زال متلبداً منذ القصة الإجبارية.

حين تخطت المياه باتجاه ليديا، لم تكن ليديا موجودة. وهذا أمر غريب فليست الإيطالية على هذه الدرجة من الإهمال ولكن نادين كانت مسرورة لأنها وجدت نفسها بعيداً عن وجود تلك المرأة الكريهة. كانت تجفف نفسها حين برز شخص من بين ظلال الزيتون، فشدت منشفتها إلى جسمها تحميه.. وشاهدت لينو يتحرك إليها ببطء.

كان أول ما فكرت فيه هو الفرار ولكن الخوف سمّرها في مكانها فرأته يبتسم ويمد يده إلى المنشفة مهدّداً:

ـ لا تزعجي نفسك بالصراخ، فلن تسمعك ليديا أو بيدرو. ما كان يجب أن تضعي عينيك على سيرجيو، لأن ذلك لا يعجب ليديا.

إذن، لقد تعمدت تلك المرأة جرها إلى هذا الفخ. وكانت تعلم أن لينو سيجدها.

ارتعشت ارتعاشة عنيفة وارتدت على عقبيها تتأوه ولكنها لم تكن سريعة كفاية فأمسكها لينو بأقل جهد، وبدأ يتلاعب بها كما يتلاعب القط بالفأر وطفقت يداه تشدان خصرها، وانحنى إليها.

فكرت في أنها ستموت إن عانقها، فلن تطيق ذلك. كانت يداه تمسكان بالمنشفة، فجعلها الخوف والذعر تقاتل كحيوان مذعور، وأخذت أظافرها تغرز عميقاً في بشرته. فاجأته ردة فعلها العنيفة التي دفعته مكرهاً إلى تركها جزئياً ولكنها شاهدت يده الطليقة تمتد إلى

حزامه. ماذا يعني بحركته؟ لم تفهم ما يفعل إلا عندما شاهدت بريق السكين في يده.

سرعان ما تقوقعت على نفسها، كانت عيناها مشمئزتين ومسمرتين في آن واحد. وأحست بالخوف يعضها عضات هائلة تكاد تمزّق صدرها وتشل فكرها وحركتها. تحرك لينو إليها كالمنوّم مغناطيسياً وكان تركيزها منصباً على النصل الرفيع اللامع الحاقد.

ضحك لينو ضحكة عميقة متمتعاً بخوفها، متلاعباً بها. ارتدت تستعد للعدو ولكن ما إن تحركت حتى أمسك بها..

ـ لينو!

مزق الأمر الجاف الأجش الصمت، فالتفتت نادين بحدة بحثاً عن صاحبه فرأت سيرجيو يركض إليهما والغضب يستعر في وجهه.

أعطى وصوله نادين الشجاعة فقاتلت لينو وتحررت من قبضته، ولكنها أساءت الحكم على ردة فعله، فظهور سيرجيو المفاجيء، جعله يتمتم بوحشية من بين أنفاسه ثم أنزل السكين التي قطعت المنشفة من الأمام تاركة خيطاً رفيعاً أحمر راح يتسع وينتشر وسط نظراته. أما آخر ما سمعته فكان صوت سيرجيو الذي صاح بحدة:

ـ بيدرو.. أبعده عن نظري وإلا لن أكون مسؤولاً عما أفعله به!

حين استردت وعيها، كانت مستلقية في اللاندروفر مع شخص.. إنه سيرجيو، في مقعد السائق وهو يتشاجر مع ليديا، التي كان صوتها حاداً غاضباً:

ـ لماذا تصطحبها إلى البلدة؟ إنه مجرد خدش!

ـ إنه أكثر من خدش ليديا.. ولا نريد أن تموت من التسمم بسبب الالتهاب. والآن أسأل ماذا كانت تفعل بمفردها مع لينو أصلاً؟ لقد أعطيتك تعليمات صارمة...

ردت تقاطعه بنعومة:

- ربما كان يجب أن تعطي هذه التعليمات لها «كارا» عزيزي لا لي . . دعني أهتم بجرحها . . ماذا إن حاولت الفرار وهي في البلدة؟

رد بثقة باردة هادئة جعلت نادين تقشعر:

- لن تفعل . . ويجب أن يعاين الطبيب الجرح . . قد يحتاج إلى قطب كما أننا لن نستفيد منها ميتة. والدها يطالب بدليل على أنها ما تزال على قيد الحياة وهو لن يرسل لنا المال إلا إن حصل على هذا الدليل.

تمتم بيدرو:

- لم تقل شيئاً عن هذا من قبل؟ قلت لنا إن كل شيء يسير حسب الخطة.

- وهذا صحيح . . ولكنك لست عديم الخبرة في هذه الأمور لتعلم أن رجل أعمال ماكراً لن يدفع إلا إن حصل على الدليل الذي يؤكد أن ابنته بعافية.

- وكيف توفر الدليل له؟

- نجعلها تقرأ فقرة من جريدة الصباح.

- وبعدها يرسل المال؟ ألهذا طلبت أن نتركها على قيد الحياة؟

أصرَّ سيرجيو على المحافظة على حياتها. أيعني هذا أن الآخرين كانوا يضغطون عليه لقتلها؟ ضغطت وجهها المحترق إلى المقعد القاسي، وحاولت ألا تظهر لهم أنها استردت وعيها.

- بدا لي ذلك هو الشيء المعقول المنطقي وقد أكدت لي روما أنكم خبيرون في هذه الأمور . . ولكنني وجدتكم مهملين وكأنكم أطفال غير مجربين. يجب أن أرفع بكم تقريراً لدى انتهاء هذه المهمة . . لقد تجاهل لينو تعليماتي قبل هذه المرة.

عرفت نادين حتى بدون أن تنظر إليهم أن ليديا وبيدرو مرعوبان من كلامه، فتعجبت من قدرة سيرجيو في السيطرة على الموقف وعلى

أفراد العصابة. كان يديرهم كما يدير الدمى. شعرت بأن شهوة الانتقام التي ساعدتها ومنعتها من الانهيار تتلاشى منها لأنها وجدت نفسها عاجزة عن الانتقام من رجل حصن نفسه من كل ما قد يوجهه إليه القدر. ولكن، لكل رجل نقطة ضعف، غير أن حدساً ما أنبأها بأن المرء قد يقضي عمره كله في البحث عن نقطة ضعف سيرجيو ولا يجدها.

حين شغّل سيرجيو محرك اللاندروفر القديم، أرسل الارتجاج ألماً في جرح نادين وكان أن فقدت الوعي ثانية. ولم تسترد وعيها إلا بعدما تجاوزوا الطريق الترابية. فأوقف سيرجيو السيارة ونظر إليها:

- كيف تشعرين؟

لم تكن يدها تبرح المنشفة الملتفة حول جسمها فعبس وكأنه يعرف هذا للمرة الأولى. خلع قميصه بسرعة:

- هاك . . الأفضل أن ترتدي هذا.

ثم استدار إلى الخلف وأخرج جينز نظيفاً مطوياً أعطاها إياه.

- وهذا أيضاً ربما هذه الملابس كبيرة ولكنها أفضل من لا شيء.

أمسكت بالقميص والسروال ونظرت إليه بجمود، فسألها:

- ما الأمر الآن؟ ألن ترتديها لأنها لي؟ أتفضلين البقاء عارية . . صحيح؟

- كنت . . أتساءل إن كان بإمكانك إشاحة وجهك بعيداً.

دهشت من سرعة استدارته أما هي فتعثرت الأزرار بين يديها وتدفق الدم ببطء من جرحها، قال ببرود:

- تدركين ما كان سيحدث لولا عودتي التي كان سببها ثقب في الإطار . . أليس كذلك؟

وجدت الشجاعة لترد: «أجل كان سيغتصبني لينو».

- يغتصبك؟ لم تكن هذه هي القصة التي سمعتها من ليديا. ألست

من طلب ما حدث لك؟

- هذا غير صحيح!

- لا؟ وهل ستدعين جهلك برغبته الشديدة فيك؟

- بل أعرف ذلك ولا أجهله.

كانت كلماتها الهادئة أكثر من همس بقليل.. ولكنها لن تخبر عن خدعة ليديا، فليظن بها ما يشاء لأنها لا تكترث أو تعبأ.

- تعرفين ومع ذلك عرضت نفسك أمامه بتلك الطريقة؟

جعلتها لهجته الحادة القاسية تنتفض ذهولاً.. وأردف يسأل بغضب:

- ومن خلته؟ أحد زملائك في المجتمع الراقي؟ حسناً.. سأظهر لك من هو. إن تسمية لينو بالحيوان لظلم وإجحاف بحق مملكة الحيوانات. إنه أحد الساديين. أعرف أن بعض النساء يجدن هذا النوع من الرجال مثيراً.. حسناً.. أنت لست منهن ولكنك ذات تجربة تجعلك تعرفين أمثاله وتعرفين أن عليك ألا تشجعيه.

أشجعه! تدفقت الدموع التي لم تستطع منعها:

- لم أشجعه!

ضحك ساخراً:

- لا؟ ليس هذا ما سمعته. تعرفين خير معرفة التأثير الذي يتركه مظهرك. إن الرجل الذي لا يتأثر عندما يراك هو رجل قد قُدّ من حجر، ورغم معرفتك وخبرتك عرضت نفسك بتباهٍ.

- عرضت نفسي بتباه؟

نسيت ألمها وجلست تتابع:

- كنت أستحم في النهر، وفي ظني أن ليديا تحرسني على الضفة. ولكن ماذا عنك؟ هل يختلف الأمر حين تكون مكاني؟

ذكرها بريق التسلية في عينيه بالليلة التي التقيا فيها للمرة الأولى.

وقال بنعومة:

- هكذا إذن.. رأيتني هذا الصباح.. أقول رداً على سؤالك، ودفاعاً عن نفسي أن ما من امرأة استطاعت حتى الآن اغتصاب رجل. وإن حدث ذلك فاعلمي أننا حصلنا على مساواة كاملة بين الجنسين. ولكن حتى يحدث هذا، سنضطر ببساطة إلى تقبل الوضع الراهن، الذي يقول إن الأمرين مختلفان كل الاختلاف.

كادت نادين توشك أن تقول له إن أحد أهداف منظمتهم هو فرض المساواة الكاملة. ولكنها تذكرت أن سيرجيو لا يقضي الوقت في ذكر وصايا منظمتهم، فنادراً ما كان سيرجيو يذكر سياستها أو يحاول توجيه التعاليم لها كما يفعلون. بل هو في الواقع في واد وزملاؤه في وادٍ آخر.

جعلتها حفرة مفاجئة في الطريق تقفز من مكانها وتلتصق به وعاودها الألم مجدداً.. وتسللت الفكرة من رأسها، وهي تحاول التركيز على ما تبقى من وعيها.

* * *

٦ ـ سراب الحرية

ظلَّ الدم ينزف ببطء طوال الطريق إلى البلدة الصغيرة. . كان سيرجيو يقود السيارة بسرعة وحذر وفيما كانا يمران بالطريق الساحلي أمام الفيلا، تذكرت نادين تلك المناسبة والمشاعر المعذبة التي خبرتها.

الآن ماتت تلك المشاعر الرقيقة كلها. فكرت مرتين أو ثلاث مرات، في رمي نفسها من السيارة، ولكن الدم الذي نزفته أوهن عزيمتها هذا دون ذكر ضغط أصابع سيرجيو التي اشتدت على ذراعها. . أصبحت مقدمة قميصه الذي ترتديه مشبعة بالدماء ولكنهما كانا قد وصلا إلى القرية الصغيرة المغبرة الطريق، المثالية في إيطاليتها بشوارعها الضيقة، ومبانيها الطويلة، المليئة بالغسيل المنشور، وبالجدات الجالسات خارجاً وهن يراقبن الأطفال، بدون أن يزعجهن صوت السيارة.

غاص قلب نادين عندما دخلا إلى ما بدا لها أفقر حي في البلدة، وتوقف سيرجيو خارج مبنى متداع طلاؤه. وقال لها:

ـ الطبيب روسيني كان أبرع جرّاح، ولكنه لسوء الحظ أدمن على الكحول. سأخبره بأنك زوجتي وبأن جرحك حدث من جرّاء خلاف عائلي. ما زالت إيطاليا مجتمعاً يسيطر فيه الرجل، وعليه سيُعتبر ما تقولينه هستيريا نسائية بحتة. أما الآن فيستحسن أن ترتدي هذا.

أعطاها سترة خفيفة الوزن، لونها كلون عينيه. حينما رآها تكافح من أجل الوقوف ساعدها على ارتداء السترة وعاملها وكأنها طفلة صغيرة. . كانت باردة أكثر مما تحس، لذا رحبت بدفء السترة، خاصة عندما اكتشفت أن ما قاله لها عن الطبيب صحيح.

تعمد الإسراع بها أمام امرأة منتظرة، وشدَّها إليه بحيث شعرت بالمسدس الذي يخفيه تحت سترته، وقاطع الطبيب الذي كان يتحدث مع أحد مرضاه. أمام إصرار سيرجيو، أدخلا إلى غرفة فحص رثة، وطلب من نادين نزع قميصها.

نظرت إلى سيرجيو نظرة ممعنة، فأدار ظهره أما الطبيب فراح يعاين الجرح بدقة عجيبة.

ـ همم. . إنه جرح نظيف، وهو غير عميق. سأعطيك بعض المراهم وبعض الأقراص.

كتب الوصفة وأعطاها لسيرجيو ثم قال لنادين بمرح:

ـ في المرة القادمة، كوني ألطف معه. هه؟

توقعت من سيرجيو أن يعود بها مباشرة إلى المزرعة ولكنه ويا للدهشة، أوقف اللاندروفر خارج فندق صغير، وأمسك بذراعها وقادها إلى الخارج قائلاً:

ـ سنبيت ليلتنا هنا. وفي هذه الأثناء سنسجل الشريط لوالدك أما غداً صباحاً فأعود بك إلى الطبيب ليعاين جرحك.

سألته بمرارة:

ـ ألا تخاف أن أفرَّ منك؟ خاصة وأنه ليس هناك أحد يحرسني سواك؟

ـ وكيف يمكنك الفرار؟ وليس معك مال أو جواز سفر. . إلى أين ستذهبين؟ إلى الشرطة؟

ضحك، فأغاظتها برودته، وأكمل: «لا أظن هذا».

ربت على سترته بطريقة تكشف ما يخفيه ثم دخلا إلى الفندق وهو ما يزال ممسكاً بذراعها. تقدم من الاستعلامات وسمعته يحجز غرفة بسريرين وظلت هي جامدة وتفكيرها يدور في دوائر مرهقة مذعورة سعياً إلى وسيلة لقلب الموقف إلى صالحها.. وسمعته يدون اسمها ثم يسجل اسمها على أنها زوجته. نظرت إليه بسخط، تهمس بقسوة وهو يوجهها إلى الدرج:

- لن أشاركك غرفة.. أكرهك!

رد بصوت ملؤه الملل ونفاد الصبر:

- لا تكوني ساذجة.. وإياك أن تظنيني لينو!

امتقع وجهها بشدة وهو يحدجها بنظره من رأسها إلى أخمص قدميها. هي ما تزال ترتدي قميصه، وبنطلون الجينز، وكان شعرها نظيفاً ولكنه يحيط بوجهها كيفما كان. ردت بغضب:

- لا.. أعتقد أنك تفضل ليدبا!

ارتفع حاجباه: «صحيح؟ لماذا؟».

تلعثمت برهة من الزمن ثم انطلقت تهمهم بكلمات غير مفهومة.

- حسناً.. إنها.. إنها امرأتك.. أليست كذلك؟

نظر إليها وما أدهشها أنه توقف.

- أهذا صحيح؟

عاد بها إلى البهو ومنه إلى الخارج.. هناك وتحت أشعة الشمس القوية غشي بصرها، فتعثرت، فالتفت أناملها تتمسك بساعده.. ولكنها شعرت بأنها تمسك حديداً لا يلين ولا يلتوي أبداً.

- أين سنذهب؟

حسبته غيّر رأيه، وقرر عدم المخاطرة بالبقاء في البلدة تلك الليلة، ولكنه لم يرد عليها، واضطرت أن تزيد سرعتها لتلحق بخطواته الواسعة، كانت قبضة أصابعه حول ذراعها كالكماشة.

تجاوز مكان اللاندروفر، ودخل بها إلى جزء من البلدة لم تره من قبل.. هي لم تزر بلدة مونتي فينو قط أثناء رحلاتها إلى الفيلا لأنها تقع في قلب البلاد وطالما فكرت أنها لا تستحق الزيارة.. ولكنها أدركت الآن أن «البيازا» أي الساحة بكنيستها القديمة ومبانيها التي تعود للعصور الوسطى كانت تستحق نظرة عن كثب. ولكن سيرجيو لم يتوقف ليتأمل هندستها، بل توجه رأساً إلى محلات صغيرة تقع في رواق مسقوف معتم، وتوقف خارج أحد المحلات.

كان في الواجهة فستان من الكتان البسيط، تفصيلته مذهلة وثمنه معقول. ويا للدهشة، أدخلها إلى المحل، وتكلم مع الفتاة التي أتت تخدمها وهي تتحدث الإنكليزية، وسمعته يقول إنهما سائحان جاءا إلى البلدة صدفة.

قال يشرح للفتاة:

- وقع لزوجتي حادثة وهي بحاجة إلى أن تبدّل بلوزتها بأخرى.

راقبت نادين بصمت وذهول عدة ملابس تُعرض أمام سيرجيو، واعترفت مرغمة بأن ذوقه رفيع فقد اختار لها بلوزتين من الكتان إحداهما زمردية اللون والأخرى بنفسجية وكلتاهما تناسبان لون بشرتها.

قالت الفتاة وهي تخرج تنورة بنفسجية:

- هاك تنورة تناسب هذه البلوز.

- سنأخذها.

وأخرج حفنة سميكة من أوراق الليرة الإيطالي مبتسماً تلك الابتسامة التي أسرت قلب نادين مرة.

فيما كانت الفتاة تحضّر الفاتورة تحركت نادين إليها. لكن سيرجيو أحسّ بما ستقدم عليه فأمسك ذراعها وبرقت عيناه تحذرانها. ثم خرجا إلى الرصيف الحار وكان أن ولّت اللحظة المناسبة، وولّى

معها شعاع أمل آخر.

تمت عودتهما إلى الفندق بسرعة وكفاءة.. وفي غرفتهما أخرج سيرجيو صحيفة، وآلة التسجيل الصغيرة التي استخدمها من قبل.. وقال يأمر نادين بخشونة بعدما أعطاها الصحيفة:

- اقرئي.

أرادت الرفض ولكن عدم فائدة الرفض طغى عليها بموجات كئيبة ساخطة.. فأخذت تقرأ لمدة عشر دقائق قبل أن يوقفها سيرجيو، ويعيد الاستماع إلى الشريط، ثم ينتزعه من الآلة، ليضعه في مغلف:

- عظيم، قد يشجع هذا والدك على الإسراع. يكاد ينفذ صبر الآخرين.

ردت ساخرة:

- في حين أن شيئاً لا يهز صلابة صبرك.. يدهشني أنك لم تطلب بضع صرخات ألم ورعب للزيادة في التأثير.

أدهشها ظهور خطوط خفيفة من الاحمرار على وجهه. إذن فهو يملك نقطة ضعف. فتحت فمها لتدق أكثر على النقطة الحساسة لديه ولكنه رماها بالبلوزة والتنورة، . مشيراً إلى حمام صغير.

- حينما تجهزي ناديني لأضع المرهم الذي وصفه الطبيب.

نظرت إليه نادين، وحرارة غريبة تطغى على بشرتها... كان الجرح تحت الصدر مباشرة وهو يمتد في لحمها الطري حتى البطن.. في داخلها ما ارتجف للتفكير بيدي سيرجيو وهما تلمسان بشرتها.. فقالت متوترة:

- سأفعل هذا بنفسي.

ولكن حاجبيه ارتفعا بسخرية وازدراء وقال بصوت حاد خبيث:

- بالطبع تستطيعين هذا. ولكن هل ستدهنين الجرح فعلاً؟ لا أستبعد أن تتناسي لتقعي مريضة ويتم لك بذلك مراوغتنا، والهرب.

لم تستطع نادين الإنكار بأن الفكرة خطرت ببالها، وفضحتها عيناها. فلو تركت نفسها تمرض وتموت، وطلب والدها برهاناً آخر على أنها حية لحال موتها دون حصولهم على المال، على الأقل، وأكمل:

- هكذا، وبما أنني لا أثق بك، سأتأكد من إتمام المهمة بنفسي.

كانت قد دخلت إلى الحمام حين أضاف:

- ارتدي البلوزة والتنورة البنفسجيتين.. فأنا أذكر أن ساقيك جذابتان هذا عدا أشياء أخرى مغرية وجذابة.

قررت نادين تجاهل طلبه وارتداء الملابس التي خلعتها ولكن عندما خرجت من نعيم الدوش الدافىء والتقطت قميصه، وجدت أنه يحمل بالإضافة إلى تلطخه بالدم، رائحة رجولته التي ما تزال تعشش في القماش. فرمته عنها بسرعة، ونظرت إلى البلوزة البنفسجية التي كانت تلتف حول الجسم والتي لها ياقة واسعة، وأرداف ضيقة.. كان الجرح ظاهراً بفظاظة على بشرتها السمراء بفعل الشمس وكانت أطراف شعرها المبلل المجزوز، تنسدل بنعومة على وجهها فتزيد من استدارة وجهها البيضاوي.

عندما خرجت إلى غرفة النوم، كانت ترتجف بفعل شعور صعُب عليها تفسيره. كان سيرجيو مستلقياً على أحد السريرين، يقرأ الصحيفة. فسارع للوقوف حين دخلت وراحت عيناه تتأملانها في هذه الملابس ثم قال:

- إنها تليق بك. إنما أظن أننا بغنى عنهما ما دام عليَّ الاعتناء بالجرح.

مد يده بحزم إلى رباطات البلوزة، يحلها قبل أن تتمكن من منعه.. واحترق وجهها بحرارة الدم المتصاعد، وتراجعت إلى الوراء.

تجاهل سيرجيو الحركة، وأمسك كتفها ليوقفها في مكانها ثم راح

يدهن المرهم فوق الجرح المؤلم.. هذه الأصابع، التي لم تفعل حتى الآن سوى معاقبتها، كانت تريحها بشكل غريب، تنشر المرهم الملطف على بشرتها الحارة.. وشعرت باسترخاء غريب.

ـ نادين؟

التقطت الحدة في لفظ اسمها، ولكن الغرفة بدأت تميد بها بشكل غريب.. أصابع سيرجيو وعيناه السوداوان القلقتان هما الحقيقة الوحيدة التي تحس بها.. ثم احتجب كل شيء، سيرجيو والجرح والغرفة، فقد هاجمتها دوامة من الدوار وانفتحت أمامها بحيرة سوداء وكان أن تعثرت وراحت تغرق وتغوص ثم تعاود الطوفان بلذة فوق شيء دافىء.. وآمن.

كان أول ما وعته نادين حين فتحت عينيها غرابة ما يحيط بها.. رفرفت عينيها أمام أشعة الشمس القوية، المتدفقة من النافذة ونظرت ببطء حول الغرفة.. لا شك في أن كابوس اختطافها لم يكن سوى كابوس ولكنه كان واقعياً جداً.. عبست لدى سماعها خرير المياه في الحمام، ثم وقع نظرها على البلوزة والتنورة اللتين كانت ترتديهما الليلة السابقة، وسرعان ما فهمت ما حدث.. لا تذكر أنها خلعت ملابسها.. وهذا يعني..

ـ عظيم.. لقد استيقظت.

تسمّرت لأنها تعرف أنها شبه عارية تحت الغطاء وصاحت عن غير تفكير:

ـ هل نزعت ملابسي؟

رد ساخراً:

ـ لقد أغمي عليك، وبدا لي من المؤسف أن نفسد ثيابك الرائعة. وهي ليست المرة الأولى وأشك في أن تكون الأخيرة.. مع أن نسائي لا يغمى عليهن بين ذراعي.

جعلتها ضحكته ومعرفتها بأنها أسيرته تشعر بالغضب الشديد.

فردت ببرود متقزز:

ـ أنا لست إحدى نسائك، وأعترض أن تصفني وكأنني إحداهن.

تجهم وجه سيرجيو، وضاقت عيناه وهو يدفع كتفيه عن الباب، ويتقدم ببطء إلى السرير.. حاولت نادين إبعاد عينيها عن رشاقته ووسامته.

وقف قرب السرير ولما رأت الغضب البارد في عينيه ذعرت:

ـ إذن أنت تعترفين؟ لماذا.. عجباً؟ لأنك لا تستطيعين التحكم بي كما تتحكمين بالآخرين؟ أم أن السبب أنني انتزعت الاستجابة التي لم يستطيعوا انتزاعها منك؟

ـ أنت لم تنتزع مني شيئاً!

خرجت كلمات الإنكار منها لا إرادياً، ولكنها شهقت عندما شعرت بالسرير يتقلص تحت ثقله من جراء تثبيته ذراعيها على جانبي السرير، قال لها وهو يتأمل وجهها المتورد: «لا؟».

كانت سخريته وعدم تصديقه تطغيان على كلماته الهامسة.. انتفضت نادين حين انحنى فوقها، وأدارت رأسها بجنون من جانب إلى آخر لتتخلص من عناقه الذي يريد منه أن يثبت كذبتها. ولكنها في الواقع كانت تقاوم المشاعر التي صدمتها.

ـ توقفي عن تمثيل دور العذراء!

كانت الكلمات ساخرة أكثر منها غاضبة.

استجابت رغماً عنها لعناقه ولم تستطع فعل شيء حيال الأمر. هذا هو الثمن الذي ستدفعه بسبب افتقارها إلى التجربة.. المرأة التي تملك تجربة سابقة لا تكون عرضة للخطر من مجرد لمسة صغيرة، كما يحصل لها مع سيرجيو.

ـ أنت ترتجفين.

ـ لأنني أكرهك كثيراً. أكرهك وأحتقرك!

ـ صحيح؟

طغت التسلية على الغضب اللامع في عينيه، ولكن لم يكن لد
نادين سوى لحظة واحدة لتتساءل عن سبب غضبه، كانت يا
القاسيتان تمسكان برأسها بحيث أصبحت غير قادرة على الحرا
تأوهت من أعماق حنجرتها محتجة، تحاول دفعه عنها، ولكنه ك
أقوى منها. وأحست رغماً عنها بالاستجابة له في أعماقها.

فانسل اسمه من بين شفتيها برجاء، رجاء استغاثة ولكن ل
تصلب جسمه وتركها ببطء هزَّ رفضه كيانها كله.

ـ الأفضل أن ترتدي ثيابك.. يجب أن نعود إلى المزرعة.

كانت كلماته الباردة وإشاحة وجهه عنها ضربة مؤلمة لها. أرادت أن تغضب وتصيح.. أن.. أن ماذا؟ وتعالى الغثيان إلى رأس معدتها.. أي نوع من النساء هي؟ وهي التي تباهت دائماً بقدرتها على كبح مشاعرها وعلى رفض مشاعر الإثارة الرخيصة.. ومع ذلك، ه هي، تعاني من أسوأ أنواع الألم والإحباط مع رجل تكرهه وتحتقره. ما الذي يحدث لها؟ لقد قرأت قصصاً عن العلاقة المثيرة التي تتطو بين الخاطف والمخطوف.. وربما هي الآن تعاني منها.. مع ذلك فهي تكرهه.. ويجب أن تحتقر نفسها لهذا.. كانت مشاعرها الجياش محبطة لأنه أعطاها ظهره ووقف يلتقط قميصه، ويرتديه.

ـ هاك.. خذي هذا وارتدي ملابسك.

استدارت في الوقت المناسب لتلتقط الثياب التي رماها لها وكان وجهها قرمزياً من الخجل. أمسكت البلوزة وسارعت إلى الحمام، حالماأدار ظهره لها.

عندما خرجت من الحمام، وجدت الفطور في الغرفة.. كانت القهوة لذيذة بالنسبة للطعام الذي يتناولانه في المزرعة، فشربت عد

فناجين قبل أن تدرك بأن سيرجيو أنهى فطوره وهو ينتظرها. أرادت لا إرادياً إطالة الوقت معه لأنها ارتجفت لمجرد التفكير في المزرعة وما ينتظرها فيها.

ـ تعالي.. يجب أن يعاينك الطبيب، وأنا أريد إرسال الشريط إلى أبيك. لقد نفذ حتى الآن كل ما طلبناه منه.. وأتمنى أن يستمر في هذا من أجل سلامتك.

نظر الطبيب إلى الجرح باستغراب، وقال لسيرجيو إنه يتماثل للشفاء بشكل سريع. كان سيرجيو قد أصرّ على مرافقتها إلى عيادة الطبيب، قائلاً إن الطبيب لن يستغرب الأمر فالرجال الإيطاليون يكرهون ترك نسائهم مع الرجال، وسيفهم الطبيب لماذا لا أريد أن يكون وحده مع زوجتي الجميلة.

آلمتها هذه الملاحظة كثيراً كانت تعلم أنها تبدو غير جميلة بشعرها المشعث وبوجهها الخالي من الزينة، لذا لا داعي إلى أن يذرّ الملح على الجرح.

حين غادرا عيادة الطبيب اقتادها نحو ساحة «البييزا» حيث اشترى لها ملابس أخرى. راقبته نادين وأفكارها تتقاذفها بسبب الأحداث التي أوصلته إلى وضعه الحالي. من الواضح أنه مثقف وذكي وقوي وقدرته على السيطرة على العصابة دليل واضح على قوته وذكائه، وهذا بحد ذاته ليس مهمة سهلة. إن رجلاً يملك صفة القيادة قادر على القيام بأعمال شرعية ناجحة. فلماذا اختار العيش خارجاً عن القانون؟ أهو تحدي الحياة والرغبة في العيش قرب الخطر؟ أم أن المال هو ما يروق له؟ الجواب أمر قد يستحيل عليها معرفته.. أحست أنه يجرها إلى مبنى صغير عرفت أنه مكتب البريد.

راقبته وهو يرسل الشريط إلى والدها، وامتلأت نفسها بإحساس غامر من الحنين إلى بيتها ووطنها. فترقرقت الدموع في عينيها ولم

تحاول منعها فانسلت قطرات منها على وجهها.

ـ هاك.

تناولت المنديل منه لتجفف عينيها، في هذه الأثناء رأت شرطيين يدخلان إلى البناء. كان سيرجيو قد تركها لتجفف دموعها فبدأت بتصور تعدو إلى الأمام وآمالها منصبة على الوصول إلى الشرطيين.

كانت تسبق سيرجيو ببضع ثوان فظنت أن هذه الثواني كافية ولا سيما صغيرة الجسم اعتقدت أنها قادرة على التسلل بين الحاضرين، وهذا ما لا يستطيعه. لكن، ما إن وصلت إلى الهدف حتى أحست بيديه تطبقان عليها، وتشدانها إلى الخلف، حين استدارت لتواجهه بشدة كان وجهه قناعاً بارداً من الغضب كاد يفقدها توازنها.

نظر الشرطيان إليهما، كما فعل آخرون. ففتحت نادين فمها لتطلب العون، ولكنها صاحت ألماً حين تركت يد سيرجيو أثرها على وجهها.

إنه للمرة الثانية يؤدبها جسدياً مع أن الألم هذه المرة لم يكن كبيراً، فالصدمة كانت أقوى من رد فعلها فقد لاذت إلى الصمت. ثم سمعته يقول للشرطيين الفضوليين:

ـ إنها تقابل رجلاً آخر.. ابن عمي لا غيره.. وحين أواجهها بالأمر، تنكر مع أن جميع أبناء قريتي رأوها معه!

ضحك الشرطيان وعلقا على الأمر بكلام دفع الدم إلى وجنتيها. أزعجها مزاحهما الوضيع ولكن إيطاليا بلد يحكمه الرجال فإن الرجل هنا قادر على تأديب زوجته علناً بدون أن يفكر أحد في التدخل.

كانت قبضته تؤلمها عندما راح يجرّها إلى الخارج ولم يتوقف حتى اتخذ طريقاً ظهر فيه اللاندروفر وقال لها:

ـ حاولي شيئاً كهذا ثانية، وستشعرين بوخز الرصاص، لا براحة يدي.. يا إلهي! إنك تتحدين صبري إلى أقصى حد! ماذا كنت

ستجنين؟

ردت بحدة:

ـ كنت أحاول كسب أثمن ما في الوجود. حريتي...

ـ ألهذا لم تتزوجي قط؟ ألأن «حريتك» تعني الكثير لك؟

ردت ساخرة، لتعوض كرامتها عن الضربة التي سددها إليها:

ـ ألست ساذجاً قليلاً؟ إذا أراد المرء يستطيع أن يجد حريته وحرية رغباته في الزواج أيضاً.

هز كتفيه بدون اكتراث:

ـ إذن، ربما لم تجدي من يرغب فيك، على أساس هذه الشروط، وأنت صاحبة السمعة المشبوهة. كما يقال...

ـ صاحبة السمعة المشبوّهة؟ ألم تسمع بالمساواة النسائية؟ قد لا يرغب كل الرجال بالطاهرات من النساء، العديمات الخبرة.

ـ ربما لا يرغبون فيهن كعشيقات أما كزوجات فالأمر مختلف.

أغضبها غروره الذاتي، وأرادت أن تقول له إنها لم تتزوج بسبب حلم سخيف يراودها وهو يتعلق ببحثها عن رجل تحترمه وتشرّفه، وتحبه، رجل يظهر فيها أنوثتها دون أن يسيطر عليها أو يخمد روحها المتحفزة.. وها قد آمنت بأن لا وجود لمثل هذا الرجل.

لم يحدث أثناء العودة إلى المزرعة شيء يذكر مع أنها كلما اقتربا من سجنها كانت تشعر بالرعب يتزايد وعندما بلغا وجهتهما غاب عن تفكيرها كل شيء إلا الموت الوشيك حدوثه.

حياتها آمنة ما دام والدها يسعى إلى جمع الفدية.. إنها واثقة من هذا.. لكن ما إن يعرف الخاطفون بأنه سيدفعها حتى يتخلصوا منها دونما رحمة.. فكيف يتركونها حية وهي قادرة على التعرف إليهم فيما بعد؟ لا شك في أنهم يعتقدونها بلهاء، خاصة سيرجيو الذي يسلي نفسه بها ويتلاعب بمشاعرها رغم علمه بمصيرها النهائي.

استقبلتهما ليديا بصمت غاضب. وكان على فك لينو كدمة شديدة حية، وفي عينيه غضب وحشي، حين نظر إليهما وهذا ما زاد من مخاوف نادين.. وحده بيدرو لم يتغير.

ـ هل أرسلت الشريط؟

كانت ليديا مشاكسة بضراوة، عيناها تتفرسان باستمرار في وجه نادين التي لا تعرف عما تفتش عنه في وجهها ولا تهتم. لا بد أنها لاحظت البلوزة والتنورة اللتين ترتديهما وعندما رد عليها سيرجيو بالإيجاب أضافت بعدائية:

ـ أتركتها تدخل المحل بمفردها؟ ألم يكن في ما فعلته مخاطرة؟ أم أن لديها عذراً للبقاء معنا لا نعرف عنه شيئاً؟

تصاعد الدم إلى وجه نادين وقال سيرجيو بتشدق:

ـ لم تدخل إلى أي محل بدوني، اشتريت الثياب لها، فما كانت ترتديه كان ممزقاً وملوثاً بالدماء، فقررت استبدالها بثياب أخرى لئلا تلفت أنظار الناس. فما من أحد يتساءل عن وجود شخصين غريبين في إجازة ولكن رؤية رجل يرافق امرأة ترتدي أسمالاً بالية ملطخة بالدماء سيعلق في ذاكرتهم.

لم يسعد هذا الرد ليديا ولكنها لم تستطع التفكير في انتقادات أخرى تتغلب بها على منطق سيرجيو السليم. وما استطاعت نادين أيضاً، فمنذ استيقظت هذا الصباح ساورتها مشاعر متشابكة متصارعة لم تستطع السيطرة عليها.. كان في عيني سيرجيو هذا الصباح نظرة غضب ممزوج بشيء آخر... وكأنه إعجاب ممزوج باحتقار نفسي. ولولا بعض الحكمة المتبقية لديها لافترضت أنه نادم على المشاركة في اختطافها. ولكنها ليست الضحية الأولى التي يتورط في اختطافها بهذه الطريقة، ولا يمكنها أن تغتر بنفسها فتوهمها بأن مشاعره تجاهها مختلفة عن مشاعره تجاه الآخرين.

جرت وجبة المساء بصمت فقد كانت ليديا طوال الوقت ترمق سيرجيو ونادين بعينين غاضبتين مراقبتين. وكان سيرجيو يلاحظ مشاعرها ولكنه تجاهل نظراتها الشرسة إليه، وتساءلت عن سبب تصرفه هذا. خاصة وأن على الزعيم أن يحافظ على علاقة طيبة مع أفراد العصابة. بعد الطعام لاحظت نادين أن ليديا توجهت إلى لينو مباشرة، كما لاحظت أنهما راحا يتحدثان بصوت خفيض أما سيرجيو فكان يقرأ الصحيفة التي حملها من البلدة. أخذت نادين تنظف المائدة أمام أنظار بيدرو.

بعدما نظفت الصحون، وبدأت تجففها، قال لها سيرجيو:

ـ دعي عنك هذا.. فلينه لينو وليديا هذا العمل. كيف حال جرحك؟ أتتناولين الدواء؟

هزت رأسها إيجاباً، فالجرح كان يندمل بسرعة مذهلة.. ولكن اهتمام سيرجيو الواضح أقلقها. لماذا يظهر مثل هذا الاهتمام الشديد بصحتها؟ أيحاول هدهدة مشاعرها وبعث اطمئنان زائف إليها لغرض ما في نفسه؟ أيشعر بالبهجة عندما يدفعها إلى الثقة به؟

مرت أربعة أيام حين اكتشفت نادين أن مزاج خاطفيها بدأ يتغير بشكل خطير.. فكلما ذكروا مبادىء منظمتهم كانت كلماتهم تلذع وتشجب حضارتها بقوة، حضارة أخذوا على عاتقهم أمر تدميرها.

وذات صباح التفتت ليديا إلى سيرجيو تسأله بشراسة:

ـ لماذا لم نسمع شيئاً من أبيها حتى الآن؟ لقد مرّ وقت كاف. ربما لا يحمل تهديدنا على محمل الجد. لم نواجه قط مثل هذا التأخير.

رد ببرود:

ـ نحن نعيش في الحاضر، وأنت تعرفين أوامر روما.. أنا المسؤول عن هذه العملية.

قاطعه بيدرو غاضباً:

- ليديا على حق. . ربما حان أن نسرّع الأمور قليلاً. . لا يمكـ البقاء هنا آمنين وقتاً طويلاً.

قالت ليديا وكأنها تقترح حلاً:

- أقترح أن نرسل لأبيها ما يذكره بأن ابنته عرضة للخطر. ربـ يجب أن نذكره برباط الدم بإرسالنا ما هو ملموس أكثر من شريـ تسجيل. فقد دفعت عائلة الصبي كلارك فديته بسرعة عندمـ استلمت. . .

صاح سيرجيو آمراً:

- كفى، لن أستمع إلى المزيد! أنا المسؤول عن هذه العملية، وأ من يقرر الخطوات التي سنتخذها. وعليكم أن تتبعوا أوامري!

ساد الصمت وهم يصغون إليه. . وتجمع غثيان خوف على معد نادين وهي تفكر في تهديد ليديا.

كيف سيشوهونها؟ ببتر أصبع أم أذن؟ الفكرة بحدّ ذاتها دفعت العرق البارد إلى جسمها، ولكنها رفضت الاستسلام للذعر كما رفضت أن ترضي غرور ليديا عندما ترى الذعر على وجهها.

كانت تعلم بتفاصيل ما حدث لحفيد جاك كلارك، لأنها قرأت القصة كاملة في الجريدة وهي تذكر أن أباها علّق على الأمر مع أنها كانت صغيرة يومذاك. وكان خاطفوه قد قطعوا أذنه وأرسلوها إلى عائلته. . وقد افتدي وعاش! ليتها تستطيع الهرب! ولكن كيف؟ فالهرب مستحيل، ولكنها تتوق إليه وهو يسيطر على كافة أفكارها.

شعرت الآن بالرعب من التهديد الذي أطلقته ليديا. . ومضت الأيام وفي هذه الأثناء شاهدت نادين ليديا ولينو مرتينْ يتحدثان أثناء العمل، بهمس منخفض. . أيخططان لتجاهل أوامر سيرجيو، ولاغتصاب سلطته؟ كانت تحس بتغيير ما في ليديا فقد أصبحت قاسية مع سيرجيو، وشعرت بأنه الوحيد الذي يحميها من حقد لينو لذا كانت

شعر كلما اختفى سيرجيو عن الأنظار بالقلق مما قد يحدث لها. . فهي لا تستبعد أن تنفذ ليديا تهديدها فتقوم بتشويهها رغم إرادة سيرجيو الذي لن يقدر على فعل شيء بعدما ستنفذ المرأة رغبتها. حاولت ألا تتصور عذاب أبيها حين يستلم مثل هذا الدليل على محنتها.

لم تستطع لمس وجبة المساء، وكانت حركاتها كسولة غير مبالية. . . أحست أكثر من مرة بنظرات سيرجيو تنصب عليها، لكنها رفضت النظر إليه. وعندما نهضت عن المائدة، فجأة، دفع كرسيه بحركة خرقاء، فطارت عيناها إليه فسمعته يقول:

- بيدرو. . يبدو أن ضيفتنا تحتاج إلى هواء نقي. . تمشى معها حتى النهر ثم عد بها.

سألته ليديا بخبث:

- ألن تصحبها بنفسك؟ لا تقل لي إنها صدتك؟

انقلبت على ما يبدو، رغبة الإيطالية فيه إلى كراهية في وقت قصير جداً. . أم أن ليديا، تخفي مشاعرها الحقيقية بادعاء الازدراء؟

كان الظلام قد حل، ولكن الهواء الاستوائي كان ناعماً ودافئاً. . لذا شعرت بالخوف من العودة إلى غرفتها الصغيرة. ولمَّا فكرت في الفرار وجدت أن ذلك مستحيل فبيدرو يمشي وراءها وهو على أتم الاستعداد للانقضاض عليها.

كان النهر أمامهما مترقرقاً. فسارت نادين على ضفة النهر عدة أمتار، ثم توقفت فجأة لأنها لمحت سيرجيو يتقدم إليهما من الاتجاه المقابل. يبدو أنه هو أيضاً كذلك، رغب في تنشق نسيم الليل العليل ولكنه حرّ في أن يفعل هذا متى شاء، التوت شفتاها بمرارة لهذه الفكرة.

قال سيرجيو للرجل الآخر وهو يتوقف أمامهما:

- بيدرو، أريد منك أن تلقي نظرة على اللاندروفر. . فالمحرك

ترتفع حرارته بسرعة.

ـ سأجربه الآن، وفي الصباح ألقي عليه نظرة أخرى.

ـ عظيم، لا نخاطر بالبقاء بدونه.

فيما كان بيدرو يتسلل مبتعداً في الظلمة وقفا وحدهما، وأ[illegible] نادين بارتباك غريب. وراحت تنظر إلى النهر ولكنها كانت تشعر باستياء مرير بسبب لمسة يد سيرجيو الذي أشار إلى أن وقت العودة قد أزف. كان المنزل السجن وراءها والنهر أمامها والحرية خلف هذا النهر.

اجتاحتها رغبة غريزية تغلبت على كل حذر وخوف.. وبدون أن تفكر هرعت نحو النهر، وليس في ذهنها خطة واعية متبلورة.. بل خوف ويأس إلى الحرية.

فاجأت حركتها سيرجيو، وسمعته يشتم ويلعن بصوت ناعم خلفها، ولكنها أصمت أذنيها عن صوت ملاحقها وحثت خطاها الى أقصى حد. سجنها القصري جعلها خفيفة الوزن، ولكن خفة وزنها لم تجعلها تسبقه كثيراً.. لأن سيرجيو كان قوياً وذا قدرة هائلة [illegible] إليها.

رفضت الاستسلام حتى وهي تعلم مسبقاً عدم فائدة ما تفعل. كانت تعذّب جسدها إلى درجة كادت معها تصرخ احتجاجاً ولكنها لم تكن تعبأ شيء حتى بالانهيار.. الفكرة الوحيدة التي كانت تضج في رأسها هي الحاجة إلى الهرب والرغبة في أن تبتلعها الأرض لتصبح جزءاً منها.. جزءاً حراً!

* * *

٧ ـ ما قبل الموت

فجأة وقعت أرضاً بقوة ارتجت لها أسنانها، وكادت تخرج أنفاسها من بين رئتيها. كان قد ثبتها إلى الأرض ثقل عظيم فرفعت رأسها بانهزام مرهق، وحدقت أمامها إلى النهر الذي ينساب بنعومة بين ضفتيه.

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة!

استلقت نادين وراحت تشهق شهقات مزقت رئتيها وألقاها سيرجيو على ظهرها فوقعت وتهدلت ذراعاها بعجز إلى جانبيها وارتجف جسدها كله.

ـ ماذا كنت ستجنين من فعلتك.

ـ الحرية.

كان ملء الكلمة الألم والهزيمة. أضاء نور القمر وجهها فكشف بقسوة عن شدة عذابها. فجأة سمعته يشتم ويلعن ثم، ودون أن تصدق، غمر وجهها بيديه وراح يلثم وجنتيها ورأسها بإلحاح. لم يكن في عناقه استكشاف أو عقاب ساخر، بل لمسات رجل جرفه الكبت الذي يفرضه على نفسه بقسوة شديدة وكان أن تصرف بعفوية ملحة. تسلل القمر من وراء سحابة واستطاعت نادين سماع همسات النهر الخافتة ونغمات الليل الهادئة، وسرى تذمر صاخب في داخلها وحاجة [illegible]اسة إلى تجربة مباهج الحياة كلها قبل أن يفوت الأوان. فإذا كان

الموت قادماً لا محالة فلم لا تختبر الحياة أولاً . . فجأة فقدت كل قدر على المقاومة فقد بدا لها أن القدر وضعها في طريق سيرجيو وكأنما هذ أمر مرتب منذ زمن بعيد بحيث لا يمكنها الحؤول دون وقوعه .

رفعت ذراعيها إلى كتفيه . . لم يكن في لمسته أي تردد، بل لمس رجل لم يعد عنده شيء آخر مهم . أما نادين الجديدة التي ولدت في لحظات الهزيمة بعد محاولة الفرار فلم تشعر إلا بالإثارة التي كانت تبعثها إليها نظراته الواضحة تحت ضوء القمر وازداد الصمت رهبة حولهما .

وجذبها إلى ذراعيه يحضنها فتساقطت حواجز الخجل بعيداً . كان في تجاوبها العاصف ما يدفعها إلى الارتواء بعمق، من كأس الحياة الذي تعلم أنه على وشك أن ينتزع عن شفتها قبل أن تتذوق شراب الحب المرّ الحلو .

سمعته يتمتم : «لماذا؟ لماذا الآن؟» .

عرفت ما يعني، ردت بكل صدق .

ـ ربما لأنني أريد اختبار كل ما تقدمه الحياة قبل أن يفوت الأوان .

أحست به يتجمد وينظر إليها في الظلام، ثم يدير وجهها إلى نور القمر بحثاً عن شيء ما .

ـ أظنني سمعتك . . ولكن، كرري ما قلت لأتأكد فقط من أنني لا أتوهم .

وكررت قولها وحينما أنهت كلامها ران صمت رهيب .

ثم قال سيرجيو بصوت خفيض : «وهل أنت حقاً عذراء؟» .

ـ وماذا إن كنت؟

تنهد، ثم استقام مديراً لها ظهره، بحيث لم تتمكن من قراءة تعابير وجهه . . ثم قال متجهماً :

ـ الآن، وقد سمعت كل شيء، أشعر بأنك لست كاذبة . أهذا حقاً

ما تريدين؟ لقاءً عابراً مع رجل لا تعرفينه؟ إن كان الأمر كذلك فلماذا لم تسعي إليه من قبل؟ لماذا الآن؟

ردت بمقدار ما استطاعت من هدوء .

ـ لأنك معي، هنا .

لم يكن هذا هو رد الفعل الذي توقعته . . كان سيرجيو يلقي عليها دروساً وكأنه أب حانق، فاستوت جالسة أيضاً . فرد عليها بخشونة :

ـ وهذا هو الحال بالنسبة لبيدرو ولينو . . أتقولين إنهما قد يفيان بالمراد أيضاً .

أرادت أن ترد بالإيجاب، ولكن الكذبة لم تخرج من بين شفتيها . والتفت إليها سيرجيو يتفرس فيها وهي تهز رأسها بصمت . .

وضع يديه على كتفيها ونظر إلى وجهها : «نادين» .

كانت المرة الأولى التي يتفوّه اسمها بهذه اللهجة، وهذا ما أضاف تأججاً إلى مشاعرها لم تستطع تحمله .

ـ قد تكونين بريئة ساذجة، ولكنك تعرفين أن الإنسان في مثل هذه الظروف، يتصرف بحرارة واندفاع مجبراً مشاعره وموجِّهاً إياها إلى طرق لا تسلكها عادة . وهذا ما حدث الليلة .

صمت ثم ابتسم قليلاً باحتقار . فتألمت من الإحساس بالنبذ والهجر، فتمسكت بشيء من كرامتها وقالت تحاول تجنب عينيه :

ـ إن كنت لا تريدني، فلماذا بدأت بمغازلتي أصلاً؟

رد عليها بقسوة :

ـ أردت امرأة تساويني خبرة ومعرفة ولم أرد طفلة صغيرة تريد أن تختبر مشاعر جديدة . يجب أن تشكريني فبهذا ستتمكنين من الحفاظ على نفسك للغرض الذي كنت مصممة عليه منذ البدء، قدسية الزواج .

ردت بمرارة :

ـ وهذا ما لن يحدث . ولكنني لم أكن أدخر عذريتي للزواج .

ـ لا؟

أغضبتها سخرية الكلمة: «لا».

ـ إذن لماذا أو لمن؟

أرادت عدم الرد، ولكن شيئاً في أعماقها عارض ترددها كشف أفكارها ومشاعرها الخاصة.. وهكذا ردت بصوت خفيض.

ـ ادخر نفسي لمن أستطيع احترامه، لمن يملك المشاعر التي أملكها له، لمن أستطيع أن أشاركه فكري وروحي وجسدي.

رد ساخراً:

ـ شقيق روح... ولكن الحقيقة في النهاية أوصلتك إلى أبعد من هدفك، أو مثالك الأعلى، وكان سيحصل لولا وقوفي عند حدي. أوه.. هيا الآن لا تقولي إن قلبك الطاهر يراني العاشق المثالي.. أو الفارس الأبيض.

كانت سخريته لاذعة، فردت بمرارة:

ـ الحاجة تربح وتسيطر حينما يقودها الشيطان، خاصة عندما تواجه..

ـ خيارين أولهما الذهاب إلى القبر عذراء، وثانيهما القبول بي ويبدو أنك اخترت الخيار الثاني. أمن المفترض أن أغتر بنفسي بسبب هذا؟ إن كنت تتوقعين هذا، فأخشى أن أخيب أملك.. والآن أقدم لك نصيحة: في المرة القادمة عندما تستجيبين فيها لرجل في سبيل التجربة فاصنعي معه معروفاً واكتمي عنه سرّك.

ـ سيرجيو!

برزت ليديا من بين الأشجار وهي تنادي سيرجيو التي التفت إليها وهو يساعد نادين على الوقوف..

صاحت الفتاة الأخرى.

ـ آه.. هذا أنت.. ظننا أن شيئاً ما أصابك، لقد تأخرت.

أكد لها بطريقة أثارت الألم في قلب نادين:

ـ لا، لم يحدث شيء.

صحيح.. لم يحدث له شيء أما لها فحدث الكثير. الرفض أمر لا يطاق خاصة إن كان الرافض رجلاً أقسمت على أن تكرهه وتنتقم منه.

بدأت تسير حائرة ضائعة في متاهات المشاعر. كان نسيم الليل البارد يضرب بشرتها وراحت المشاعر التي اختبرتها بين ذراعي سيرجيو تخبو حتى صعُب عليها أن تصدق أنها تصرفت فعلاً كما تصرفت أو أنها استجابت له بمثل تلك الطريقة، مع ذلك ففي أعماقها إحساس ضئيل بالندم.. أرسلت التفكير المؤلم إلى زوايا النسيان، ودخلت إلى المنزل متجهة إلى غرفتها. ولكنها شعرت بحدة نظرة ليديا السوداء التي تكاد تكون ملموسة تقريباً.

سمعت الإيطالية تسأل سيرجيو:

ـ حتام سنبقى هنا؟ لا شك في أن صبرهم ينفذ في روما. لم نتأخر قط في إنهاء مهمة ما.

رد سيرجيو:

ـ لا. ولم تكوني قط قريبة من الاعتقال كما كنت في المرة الماضية بسبب الأمر الغبي الذي ارتكبته بقتلك جورج آدمز.. فهذا ما أفقدنا فديته أيضاً.

ـ كان رجال الشرطة يقتفون أثرنا، وبما أنه شاهدنا وعرف وجوهنا جيداً خفنا أن يكشفنا.

كانت الأيام قد اتخذت روتيناً رتيباً. كانت نادين تعمل في الحقل بعد الفطور مباشرة وذلك تحت مراقبة أحد آسريها.. وكان سيرجيو يتوجه يومياً إلى البلدة القريبة وكانت ليديا ترافقه أحياناً أو أحد الرجلين في أحايين أخرى. تعلمت أن تقنع نفسها أن الألم الذي تشعر به كلما رأته مع ليديا لا يعني لها شيئاً. بل كيف تُكن له أية مشاعر بعدما أذلها

وخان ثقتها؟ آلمها جسدياً ونفسياً عن قصد وعمد.

اليوم، كانت السحب السوداء تظلل الأفق مهددة بقدوم المطر، ومع تقدم الوقت انخفضت درجة الحرارة وكان الجو الخارجي يوتر جو المنزل أيضاً.

فأعصاب أفراد العصابة متوترة، ليديا تصيح ببيدرو وبلينو. وبيدرو يكاد لا يستجيب، أمّا لينو فأمسكها بذراعها بقسوة وهزها بعنف، فجذبت ليديا نفسها منه، وازداد التوتر بينهما. في هذا الجو العاصف أحست نادين بأن الجرح يؤلمها لأول مرة. كان قد التأم تماماً، ولكنها كانت تعرف أن هناك ندبة خفيفة تحت صدرها تذكرها بما حدث وكأنها بحاجة للذكرى.

ذهب سيرجيو إلى البلدة، وبدلاً من تحمل جو المنزل خرجت نادين تتمشى خارجاً فلحق بها بيدرو الذي اتكأ على اللاندروفر الثاني، وراح ينظف بندقيته، ويراقبها بصمت. فكرت بخبث وهي تسير على الممر المغبر باتجاه بستان الزيتون: ما أسرع ما يتكيف الفكر البشري. إنها الآن لا تستغرب رؤية السلاح ولا تشعر بالصدمة بسبب الأسر.

في البستان، تغلبت عليها الأفكار التي راودتها طوال اليوم. لماذا لم يتصل والدها حتى الآن بالعصابة؟ هل الأمر ببساطة أنه يجد صعوبة في جمع مثل هذا المبلغ الضخم؟ أم أن ليديا على حق في أنه لا يهتم باستعادتها؟

ترقرقت الدموع في مآقيها، ولكنها لم تتركها تنهمر.. عليها أن تتمسك بفكرة أن والدها يحبها.. ولكن التقصير في الاتصال من جهة والدها يؤثر في الجميع، وليس فيها فقط. فقد انفجرت ليديا في وجه سيرجيو مساء حين عاد:

- إنه يتلاعب بنا، وأنت تشجعه سيرجيو.. كلما مرَّ يوم ازداد الخطر في أن ينكشف أمرنا. يجب أن نغادر هذا المكان.

قطب لينو بغضب في وجه ليديا.

ـ لا . . ! إن غادرنا هذا المكان لفتنا الأنظار إلينا . . يجب أن نكمل الطريق الآن.

صاحت ليديا:

ـ ولكننا لا نستطيع البقاء هنا إلى ما لا نهاية . . يجب أن نفعل شيئاً، فالسير برادلي يحتاج إلى ما يذكره بالخطر الذي يهدد حياة ابنته.

خافت نادين من التهديد بتشويهها. عندما سمعت هذا التهديد في المرة الأولى ارتاعت وجعلها الرعب تحاول الهرب يأساً ولكن هذا التهديد لم يتكرر منذ ذلك الحين.

رد سيرجيو وقد بدا عليه الحزم.

ـ لا! قلت لك أن لا، مرة. ولا أعتقد أن السير برادلي يتأخر لدافع سرّي. . إن تجميع مليون جنيه ليس بالأمر اليسير حتى على الأثرياءخاصة إن تمّت العملية بسريّة. طلب مهلة، وأنا أوافق على منحه هذه المهلة.

هل غضب لأن ليديا لا تنفك عن التذمر؟ صاحت ليديا:

ـ ولكننا نعرض أنفسنا للخطر بالانتظار طويلاً.

انتقدها سيرجيو غير عابىء بنظراتها الغاضبة:

ـ أنت لا تفكرين بطريقة منطقية. إن اتخذنا الخطوة التي تقترحينها فلن يتردد السير برادلي في الاتصال بالشرطة. نحن لا نتعامل مع غبي ليديا.

ـ وماذا يقولون في روما؟ لا أخالهم مسرورين منك سيرجيو؟

ـ بل على العكس لديهم نظرة واقعية تفتقرين إليها، «كارا ميا» (يا عزيزتي) وهم قانعون بترك الأمور بين يدي. ولكنني أرحب أن تتحدثي إليهم لو شئت.

جعلت النظرات القلقة المتبادلة بين ليديا ولينو وبيدرو نادين

تتساءل ما إذا كان تهجمهم على قيادة سيرجيو قد سبق تخطيطها. . ولاحظت أن هناك تغييراً في الولاء داخل العصابة، بتكتل ليديا ولينو وبيدرو معاً. . أعلن سيرجيو ما صدم الجميع:

- يجب عليّ الذهاب إلى روما على أي حال. . وأثناء غيابي لا تفعلوا ما يجلب علينا الخطر وحينما أرجع نناقش الأمور. وإن تجاهل أي منكم أوامري فسيواجهني شخصياً حين أعود. . فهل هذا واضح؟

استغربت نادين من جديد قدرته في السيطرة عليهم. أرادت لبرهة أن تتوسل إليه ليصحبها فهي تخشى البقاء بمفردها مع الآخرين. . ولكن ما الفائدة؟ تعرف أنه سيرفض، ولكن أليس هو أيضاً كريهاً كالآخرين؟ لا فرق بينهم إلا في شيء واحد وهو أن سيرجيو يملك سيطرة على مشاعره وردة فعله.

بعد نصف ساعة، رحل. فقامت نادين بمهمتها العادية في الحقل تحت مراقبة بيدرو الذي راح يلقي عليها محاضرة شرسة عن شرور الرأسمالية ولكنها تجاهلته وتجاهلت خطابهم العظيم. في البدء كانت تصغي باهتمام، على أمل أن تفهمهم ولكنها وجدتهم عميان لا يرون أخطاء معتقدات منظمتهم.

كانت قد خسرت بعض الكيلوات في سجنها القصري. وكانت بشرتها قد لوَّحتها الشمس وباتت الآن أشد اسمراراً وبما أنه مضى عليها زمن طويل لم تستخدم فيه أدوات التجميل اعتادت على مظهرها بدونها.

كان شعرها المجزوز قد طال قليلاً، وانتشر حول وجهها بطريقة جميلة فقد أظهرت الخصلات الفاتنة جمال عينيها الكبيرتين.

- أنت هنا للعمل لا لأحلام اليقظة!

لم تشاهد ليديا وهي تتقدم، فسارعت تستقيم واقفة بألم. أما الإيطالية فدنت منها بخطوات واسعة، وإحدى يديها على خصرها

بعدوانية والأخرى على البندقية.

وتابعت بحقد:

ـ قد تخدعين سيرجيو، ولكنك لن تخدعيني.. تأملين من رمي شباكك عليه أن يلين فيساعدك ولكنك لن تنجحي، فهو لن يجرؤ حتى وإن أراد إسداء معروف لك. فالمنظمة لا تتسامح مع الخونة، لئلا تخالي نفسك ذكية. واعلمي أنه سيأخذ ما تعرضينه عليه دون أن يقدّم لك خدمة. حين يعود سننفذ الأمور على طريقتنا. أتظنين أن جسدك قادر على أن يسحره؟ لا يا عزيزتي بل سترين العكس. من الأفضل أن تدعي الله حتى يجمع والدك المال قريباً... ولا تخدعي نفسك بأن سيرجيو يهتم بك، إنه يكرهك ويكره أمثالك.. وهذه حالنا جميعاً.

ـ أنت تقولين هذا بسبب الغيرة!

قالت كلماتها بتهور، ولكنها تعلم أن تخمينها وقع في محله وأن ليديا، وخلافاً لكل منطق، تغار منها.

ردت ليديا تفح فحاً:

ـ أنت كاذبة! سيرجيو يقبل بك لأن عينيك تتوسلانه. إنه رجل ولكنك بالنسبة له لست إلا جسداً!

أخذت نادين تفكر في كلمات ليديا. وتساءلت عما كانت ستفعله ليديا لو قالت لها الحقيقة، حقيقة رفض سيرجيو لها. سيرجيو.. لماذا يحتل هذا الحيّز من أفكارها؟ حاولت التركيز على والدها وما يفعله عادة في يومه، متسائلة عما يشعر ويفكر في هذه اللحظات.. هل يفكر فيها؟ أندم لأنه لم يلجأ إلى الشرطة؟ أم أنه خائف من أن يعرّضها للخطر إذا أخبرهم؟ ترى كيف سيجمع المال؟ تعرف أنه لا يملك مثل هذا المبلغ نقداً وجمعه يعني التخلي عن بعض ممتلكاته وربما عن اللوحات الثمينة التي جمعها بشغف طوال سنوات، أو التحف الأثرية التي اشترتها أمها.. وقد يبيع أيضاً أسهمه في الشركة وهذا ما لا

يستطيع تنفيذه بدون أن يثير الريبة؟

انفجرت العاصفة المنذرة تلك الليلة. . كان الرعد والبرق يطغيان على السماء. . قصدت نادين فراشها وهي تشعر بصداع شديد فقد كانت مسرورة لأنها ستتحرر من لينو الذي كان ينظر إليها نظرات رغبة طوال الأمسية، وأحست بأنها معرضة للخطر بدون وجود سيرجيو الذي كان يحميها من رغبات هذا الرجل.

أتى الفجر حاملاً معه صفاءً نضراً وسمعت نادين صفير بيدرو في الأسفل، وجاءت ليديا تطلق سراحها بدون أن تحمل إليها الماء المعتاد. وعندما سألتها نادين عن ذلك ردت بلؤم وخبث:

ـ ما الأمر؟ ألا تظنين أن سيرجيو لن يرغب فيك إلا إذا كنت نظيفة زكية الرائحة؟ سيرجيو رجل ويفضل امرأة حقيقية على سخيفة مدللة. . حبيبة أبيها!

مع مرور الأيام كانت درجة خوف الخاطفين من انكشاف أمرهم قد انخفضت، وأصبحوا أقل حذراً في السماح لنادين بالحرية. . سألت ليديا ساخرة حين سد بيدرو على نادين الطريق إلى الباب:

ـ وإلى أين قد تذهب؟ دعها تخرج ثم راقبها من هنا، وإذا حاولت الهرب أطلق النار عليها.

لم تخطىء نادين في الظن بأن المرأة تطلق التهديد جزافاً. كان النهر يجتذبها، مع أنها لم تكن مستعدة للاعتراف بالسبب. وقفت تراقبه لدقائق عدة. . ثم خلعت البلوز والجينز، وسارت إلى الماء تخوض فيه فشعرت بالمتعة والانتعاش به، مع أنها هذه المرة راقبت الضفة بحذر، ولم تبق وقتاً طويلاً في الماء. . لم يكن معها ما تجفف نفسها به، لكن الشمس ستجفف بسرعة ملابسها الداخلية. . كانت تشاهد بيدرو من بعيد يراقبها من المنزل. . لكن ملابسها الداخلية كانت محتشمة أكثر من ثوب سباحة. . في الواقع. . وفي مثل هذا

الوقت من النهار يذهب لينو عادة بالسيارة إلى البلدة ليشتري ما يحتاجون إليه. . كان أحدهما يذهب بانتظام بضعة أيام إلى البلدة.

حين عادت من النهر إلى المنزل، كان اللاندروفر متوقف في الخارج، ولكنها لم تجد أثراً للينو ولأنها خالته في حقل العنب دخلت إلى المنزل المظلم.

فجأة امتدت يد تحيط بخناقها وتكاد تزهق أنفاسها. كانت أنفاس الرجل مشبعة برائحة الثوم الممتزجة برائحة العرق.

ـ لا تقاومي!

ثم امتدت يده الحرة لتنزع أزرار قميصها بعجلة من مكانها، وكانت تشاهد الرغبة المشتعلة في عينيه فعرفت أنه كمن لها متعمداً. . كل الخوف الذي مرّ بها في السابق لم يكن شيئاً بالمقارنة مع الخوف الذي تحسه الآن. كانت كل عضلة في جسمها تصرخ محتجة وكانت عيناها مذعورتين.

قاتلته نادين كطفلة متوحشة وقعت في فخ. راحت أظافرها تمزّق وجهه، ولكن ضرباتها على ما يبدو كانت تسلية. . كانت رائحته، عكس رائحة سيرجيو النظيفة، تشبه رائحة حيوان متوحش نتن.

شعرت بالغثيان الشديد كلما لمست يداه جسدها، وعبر ضباب ذعرها وخوفها سمعت صفق باب ثم صوت يصيح:

ـ لينو. . ارفع يديك عنها!

إنه سيرجيو! وتنفست الصعداء لكن لينو الذي جنّ بجنون الرغبة رفض الانصياع لأوامر سيرجيو.

ـ قلت لك دعها!

دفع لينو نادين بيد متوحشة إلى الأرض صائحاً:

ـ وأنا سئمت أوامرك!

وظهرت سكينة حادة تومض شراً وراح يتقدم إلى سيرجيو. تلاشى

خوف نادين على نفسها أمام خوفها على سيرجيو . . كان غير مسلح وعرفت دونما الحاجة إلى منطق أن ليديا وبيدرو لن يقدّما يد المساعدة لسيرجيو وأن ما يحدث الآن أمامها يتعدى مسألة رغبة لينو فيها أو اعتراض سيرجيو عليه . .

ارتعدت فرائصها وهي ترى تلاحم المتخاصمين. رسمت ذراع لينو في الهواء قوساً سريعاً وهو يوجّه السكين إلى الأسفل.

أغمضت نادين عينيها، وشعرت بجرحها ينبض ألماً وخوفاً مما قد يوقعه هذا النصل اللامع. تبع هذا صوت تصادم شديد، فتأوهت بألم ثم فتحت عينيها وراح قلبها يخفق رعباً لما شاهدته.

كان لينو ملقىً على الأرض تحت أقدام سيرجيو، والسكين بعيدة عنه قليلاً. كان سيرجيو يتنفس أنفاساً ثقيلة ورأت جرحاً صغيراً ينزف من خده. مسح الدم بنفاذ صبر بيده، قبل أن يمرّر أصابعه في شعره الأشعث وعندما صاح كان أبرد من قطعة ثلج من شدة الغضب:

- بيدرو! ألم أطلب إليك مراقبة لينو؟ أما أنت لينو ألم أحذرك مما قد يحدث لو . . .

صاحت نادين:

- سيرجيو، احترس!

كانت قد شاهدت أصابع لينو وهي تمتد إلى السكين، ولكن سيرجيو سبقه إليها، ورفسها بعيداً وهو يشتم بوحشية . . وعيناه تسودان من القسوة. أمسك لينو من قميصه بشدة ليقف.

- يجب أن أضربك حتى أنخر عظامك.

صاحت ليديا معترضة:

- لم تكن غلطة لينو . . كانت تثيره، وتشجعه . . .

لم يحدث ذلك! إنها تكذب!.

تألّفت الجملة في عقلها، ولكنها لم تستطع نطقها لأن الدنيا دارت حولها ملتهمة كل الواقع، مغرقة إياها في كابوس مظلم.

* * *

٨ ـ ليلتها الأخيرة

كانت نادين مستلقية على الفراش الضيق في غرفتها التي عمَّها الظلام ولكنها كانت ترى نور القمر يتسلل من النافذة. استوت على السرير، فعاد كل ما جرى إلى ذاكرتها.. وبدأت ترتجف وتبتلع ريقها بصعوبة لترد الغثيان الذي ارتفع إلى حنجرتها التي بانت عليها الكدمات. ولم تكن حنجرتها فقط التي تعاني الكدمات فعلى ذراعيها كدمات أقوى، وبلوزتها تتدلى ممزقة.

يا الله! ارتجفت لمجرد التفكير في ما كان سيصيبها. استوت على فراشها محتبية تلف ذراعيها حول ركبتيها وتضع ذقنها عليهما. وتّرت الطرقة الخفيفة على الباب أعصابها ولكنها لمحت وجه سيرجيو المتجهم المطبق، فأدارت وجهها وهي ترتعد من شعورها بالغثيان من جديد. ولكن مشاعرها انعكست في عينيها قبل أن تطبقهما مجدداً، لتخفي ما فيهما عن الرجل الواقف في الباب والحامل قصعة صغيرة في يد، والمرهم في الأخرى.

ـ نادين.

نطق اسمها وكأنه ينادي مخلوقاً يعيش بعيداً عن حضارة الإنسان. كان صوته متزناً، ناعماً عندما اقترب من السرير:

ـ لا بأس عليك أبداً.. لا أريد أذيتك.. أريد فقط أن أعاينك لأتأكد من اندمال جرحك. سأضع بعض المرهم على كدماتك..

أترين أنه لا يؤلم.. أليس كذلك؟

وتركته يمسك ذراعها وراح يدلك الكدمات بالمرهم ولكن جسدها توتر بشدة:

ـ نادين..

اندفعت الدموع إلى مآقيها واهتز جسدها كله.. فأنّت بصوت منخفض جعله ينحني لسماع كلماتها المعذّبة:

ـ لا تلمسني.. لا تقترب مني.. أحس أنني قذرة.. قذرة.

راحت تتأرجح من جانب إلى آخر وعيناها مرهقتان مظلمتان. ومد سيرجيو يده إليها، ولكنها انكمشت وظلت ترتعش.

ـ نادين.. لا بأس عليك.. أعدك بألا يلمسك مرة أخرى. سيكون كل شيء على ما يرام. تعالي أريد أن آخذ هذه البلوزة، لتتمكني من الاغتسال. سأحمل إليك بعض الماء وعندها ستشعرين بأنك أفضل حالاً.

توجّه إلى الباب، ولكن لم يظهر على نادين دليلاً يشير إلى أنها سمعته أو شاهدته. كانت ذراعاها النحيلتان مطبقتين حول جسدها المتوتر ولسانها يكرر:

ـ قذرة.. قذرة..

وعندما عاد، كانت على حالها السابق فاقترب منها بصبر وكأنه يعامل طفلة فأبعد ذراعيها عن ركبتيها، ومد لها أطرافها المتشنجة، وأزال عنها البلوزة الممزقة.. انتفضت من لمسة يديه اللتين راحتا تعالجان كدماتها ولكنها لم تحاول تجنبه. وظلت أصابعه تدلك بشرتها بالمرهم، حتى بدأ التوتر يزول عنها تدريجياً. ولمَّا أحس بذلك توقف وراحت عيناه تبحثان في وجهها وهو يقول بلطف:

ـ أنت بخير نادين.. لم يحدث شيء.. هو لم..

فأضافت ترد عنه:

ـ لم يغتصبني؟ لكنه كان يهم بهذا، ولم أستطع فعل ما يحول دون ذلك. لم أشعر إلا أنني سأموت.

راح صوته ويداه يهدهدانها وطفق لسان حاله يقول لها إن كل شيء قد انتهى، ثم ضمها إليه كطفلة صغيرة ولم يتركها إلا عندما اطمأن إلى أنها بدأت تسترخي. . أشار إلى وعاء كبير على الأرض.

ـ حملت إليك الماء. سأتركك لتغتسلي، ثم أعود بعد نصف ساعة مع بعض الطعام.

عندما خرج وقفت نادين مرتجفة، تغسل نفسها ببطء. كانت بقايا بلوزتها الممزقة تثير موجة إثر موجة من الذكرى المرعبة، ولكنها أبعدتها عنها وارتدت الأخرى وفيما كانت تزررها وصل سيرجيو حاملاً العشاء.

لم تكن ترغب في طعام ولأنه أحس برفضها قال:

ـ لن أتركك قبل اختفاء آخر لقمة. . قالت ليديا إنك لم تأكلي شيئاً طوال اليوم.

ـ وما الفائدة؟

كان صوتها يرتجف، والدموع تترقرق في مقلتيها.

ـ تعالي. . .

وصلت ملعقة كبيرة من اللحم والمعكرونة إلى شفتيها ففتحت ثغرها كطفلة مطيعة. ما إن ابتلعت أول لقمة حتى أدركت مدى جوعها. . كان سيرجيو قد حمل إليها أيضاً القهوة، ولكنها حين تذوقتها كشرت بسبب طعمها القوي.

ـ اشربيها، فهي ستخفف من وطأة الصدمة، وتساعدك على النوم.

النوم. . ! كيف تنام وهي كلما أغمضت عينيها يطالعها وجه لينو، وتحس بيديه على جسدها؟ وضعت كوب القهوة من يدها بحذر مبالغ فيه: «سيرجيو».

ـ أعرف. . ولكن هذا كله سيمر وينتهي.

صاحت بوحشية:

ـ وكيف تعرف؟ أنت لم تتعرض لما تعرضت إليه. . كان الأمر كريهاً مقيتاً جعلني أشعر أنني ملوثة. . ومدنسة. .

قاطعها بعذوبة:

ـ نادين. . ما حدث لم يكن غلطتك. إذا كانت غلطة أحد فهي غلطتي. . كنت أعرف أنه يرغب فيك ومع أن ليديا حاولت إقناعي بأنك تشجعينه، إلا أنني كنت أعرف أن هذا غير صحيح. فلا لوم عليك أبداً. . يجب أن تصدقي هذا.

صاحت متألمة:

ـ وكيف أستطيع ذلك، فلو اغتصبني لما صدقني أحد. سأشعر كلما لمسني أحد بأنه هو من يلمسني. لا أستطيع. .

ارتجفت ثانية بصمت ولكنها لم تلاحظ طريقة تجهم سيرجيو ولا اسوداد عينيه:

ـ نادين. . أنا. .

قالت مرتجفة:

ـ لا تتركني وحدي الليلة سيرجيو. . أرجوك لا تتركني وحدي، لا أستطيع التحمل. . أنا. .

ـ هس! هس. . !

التفت ذراعاه مجدداً حولها، ليجبرها على الاسترخاء:

ـ لا بأس عليك. . كل شيء على ما يرام. . سأبقى. . تعالى. . استلقي وحاولي الخلود إلى النوم. أعدك أن أكون هنا إذا احتجتني.

ونامت فعلاً، ولكن جفنيها لم يغمضا إلا لعلمها بأن سيرجيو يشاركها السرير الضيق، ويضمها إلى دفء ذراعيه بحيث لم يعد هناك مجال لصورة لينو.

لم يكد السرير الضيق يتسع لهما. واستيقظت بعد فترة من الليل فرأت انها متقوقعة بين ذراعيه ورأسها مستقر على صدره وذراعاها ملتفتان حول خصره.

ـ سيرجيو.. أنت مستيقظ؟

ـ أجل.. هل أنت خائفة؟

ـ لا أخاف عندما تكون معي.. لينو..

ـ انسي أمر لينو..

انتزع ذراعيها عنه فارتجفت وطاف بها الألم مجدداً، فأمسكت يداه بوجهها وقال بعذوبة: نادين.. لا ترتجفي.. فككت كلماته التوتر في داخلها فبكت بكاء العاجز عن التوقف أبداً. تركها تبكي وكانت تشعر بالراحة بسبب دفء بشرته تحت خدها، وبسبب أصابعه التي كانت تبعد الدموع عن وجهها.

لم تشعر بالخوف في أحضانه، ولا بالذعر حين مرر أصبعه على شفتيها.. واستجابت لـه، لكنها عادت فتشنجت لأنها تذكرت لينو ووحشيته فحالت صورته بينها وبين الرجل الذي يضمها بين ذراعيه.. وارتفع الغثيان من جديد وترقرقت راحتيها بالعرق البارد.

ـ نادين..

كان في نبرة صوته ندم وتفهم. فتركها ببطء.

ـ لا!

من مكان ما، وجدت الشجاعة على الاعتراض، وارتفعت ذراعاها إلى كتفيه، وأكملت همساً:

ـ لا.. لا تتركني سيرجيو.. عانقني، ألا ترى؟ أنا لا أذكر إلا لينو ولا أشم إلا رائحته النتنة ولا أسمع إلا صوته. أرجوك؟ أرجوك لا أريد أن يكون الذكرى الوحيدة...

ـ نادين.. يا إلهي.. هل تعرفين ما تطلبينه مني؟

كانت كلماته المكبوتة تحمل عنفاً أرسل الألم من رأسها إلى أخمص قدميها، ولكنها رفضت اختبار ألم رفض جديد.. فتمتمت بانكسار:

ـ ألست جذّابة؟ أم تراك لا تطيق لمسي بعدما لمسني لينو...

سمعته يشتم متوتراً. ثم ضمها بين ذراعيه وسمعته يهمس بعذاب:

ـ لا تقولي هذا.. لست بحاجة لي.. تريدين شخصاً يمحو من ذاكرتك صورة لينو، ولا يهم من يكون هذا الشخص. إن كنت أملك ذرة من التعقل لـ.. يا إلهي.. أريدك أيضاً نادين.. ولكنك تجعلينني أجد صعوبة في عدم معانقتك واحتضانك.

لم ترد عليه.. كانت تعرف أنها إنما تحتاجه ليكون الترياق الشافي لنفسها من ذكرى تهجم لينو عليها.. كما تعرف أنه لن يسيء معاملتها، مهما كان السبب، ومهما كانت مهمته في الحياة. أحست أنه يفرض على نفسه سيطرة شديدة لا يعرف كم من الوقت هو قادر على الاحتفاظ بها.. ولم تكن تريد منه أن يفقد السيطرة، لأنها تريده صاحياً واعياً لا يشغل باله قلة خبرتها.. أرادت أن يتحابا بسبب حاجة ورغبة متبادلتين، أرادت أن تغرق في عذوبة الاستسلام وتنسى متى وأين وماذا يحدث.

تسللت يداه إلى ظهرها، يرفعها إليه لتصبح مستلقية بين ذراعيه، وامتدت يداها إليه. كانت أشبه بطفلة صغيرة ترفض فتح غلاف هديتها قبل الوقت المحدد، ثم أدركت أنها يمكن أن تفقد الهدية، فسعت بحرارة للكشف عن جميع الهدايا دفعة واحدة.

تمتم سيرجيو في أذنها مرتجفاً:

ـ نادين! ألديك فكرة عما تفعلينه بي؟ «ديو» يا الله لا بد أنني فقدت صوابي.. ليتك تعرفين كم من الليالي أمضيها وحدي وأنا أحلم بك بين ذراعي كما أنت الآن.

كانت كلماته تعويذة سحرية أزالت جميع الشكوك التي تدور في خلدها.

فجأة أحست به يتوتر وبجسده يتسمر وبلسانه يهمس:

ـ لا أستطيع فعل هذا نادين.

لا..

ولأنها لم تكن المرة الأولى التي يرفضها فيها شعرت بأسى كبير ولكنها مع ذلك قالت له عندما رأته يهمّ بالخروج.

ـ أرجوك، سيرجيو لا تتركني. إبق معي فقط ليس أكثر فلن أطالبك بالمزيد ولكن لا تتركني لذكرى لينو. إبق معي فقط.

ـ حسناً، لن أرحل فاهدئي أرجوك.

كانت متعبة ومهزومة وكئيبة فأخذت عيناها تغمضان ثم شعرت يستلقي قربها.

استيقظت مرة أخرى أثناء الليل خائفة من كابوس فتناهى إلي صوت سيرجيو في صمت الليل يحثها على الاستيقاظ:

ـ لا بأس عليك.. إنه مجرد كابوس.. لينو ليس هنا. أم ز ال اتخذتني مكانه في كوابيسك؟

لم تتظاهر بعدم الفهم وتضرَّج وجهها لأنها تذكرت كيف توسلت إليه بدون خجل أن يحبها.. ولقد كان على حق في رفضه.. وقالت: «لا تقل ذلك، رجاء».

ـ أما زلت تتوقعين أن تميد بك الأرض؟

أجفلتها سخريته ومع ذلك أردف:

ـ معي يا عزيزتي لقد اخترت الشريك غير المناسب.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ إنني بشر ألا ترين كم أتعذَّب لأبعد نفسي عنك؟

أحست أن شيئاً يخنقها، وحينما وجدت القدرة على الكلام أخيراً،

قالت بارتباك:

ـ شكراً لك.

لم تكن ترى وجهه، ولكن كان هناك الكثير من التوتر في كلامه عندما قال: «هل لنا أن نترك هذا الموضوع؟».

عندما فتحت عينيها ثانية، أحست أن هناك أمراً مختلفاً.. عبست تحاول أن تتذكر ماذا، ثم فهمت.. إنها وحدها في السرير، مدثرة بالغطاء الذي دثرها به سيرجيو قبل أن يخرج.

قال تفكيرها السليم إن عليها الشعور بالخجل، أو على الأقل الندم، بسبب ما كادت تقدم عليه البارحة لولا تراجع سيرجيو أخيراً.

ولكنها تمنت لو أنه لم يتراجع فسيرجيو هو حلمها الكبير. ولكن أين هو؟

تناهى إليها صوت غريب من الخارج، فهرعت إلى النافذة، تنظر إلى الطبيعة حيث رأت طائرة هليوكوبتر تدور حول المنزل.. الأمل الذي طالما كبتته، وُلد من جديد. أيعني هذا أنهم يفتشون عنها؟ لا شك في أن وجود طائرة هليوكوبتر في مثل هذا المكان النائي يعني شيئاً؟

شعرت بالتوتر والانفعال وسمعت في الأسفل جلبة. لا بد أن سيرجيو هناك.. ولا ريب أنه رأى الطائرة. ولكنها أحست الآن إحساساً مختلفاً فلأول مرة تفكر في أنهما في موقعين متقابلين، وأن حريتها تعني فشله. لقد أوضحت ليديا ما يحدث للفاشلين. استولى عليها خوف رهيب، ولكنها نحّته بعيداً.

انفتح الباب ودخل يقول بشفتين مشدودتين وبلهجة قاطعة حادة:

ـ عظيم. استيقظت سنغادر المكان.

ـ بسبب الطائرة؟

ـ شاهدتها إذن؟ أجل.. ذكرتني ليديا أن بقاءنا هنا كانت فكرتي.

وهي لا تكن لك مشاعر لطيفة هذا الصباح.

صمت ينظر إليها باهتمام متحفظ:

- إذن.. لقد عدت الآنسة كلايتون المتكبرة، بعدما أدركت أن العالم الخارجي لم ينسك؟

آلمها كلامه وشعرت بالخوف عليه. عندما اندفعت عبر الباب لتخرج لامست ذراعها ذراعه العارية، فأرادت في لحظة ضعف التعلق به والتوسل إليه حتى يرحل حالاً ما دام أمامه متسع من الوقت. نظرت إليه وترقرقت الدموع في مآقيها لأنها تعلم أن إنقاذها يعني سقوطه. ولكن تعابير وجهه حذرتها من التفوه بما تشعر، فنزلت لتواجه حقد ليديا المرير، وشر عيني لينو المتقدتين الذي كان يراقب السماء من النافذة.

قضت الخطة المغادرة حالما يتناولون الطعام فهمت نادين مما سمعت أن لديهم منزلاً آخر حضِّر قبل اختطافها وأنهم سيصحبونها إليه.

قالت ليديا وهي تسخر من سيرجيو:

- قلت لك إننا أطلنا المقام هنا.. وحذرتك من أن أباها يتلاعب بنا.. لكن لا.. أنت تعرف أفضل منا.. أم تراك كنت تريد وقتاً أطول لمعاشرتها؟ فهل وجدت المتعة التي نشدتها؟ ولكن عندما ستعرف روما بهذا..

رد بحزم:

- روما لن تعرف شيئاً قبل أن أقول لها أنا.. بيدرو اذهب إلى الخارج وساعد لينو في تحضير اللاندروفر.. يبدو أن شيئاً ما قد حدث.. فهو يحاول تشغيله منذ وقت.

ظلوا يسمعون هدير المحرك عدة دقائق ثم ظهر بيدرو متجهماً غاضباً.

- لم يدر المحرك، والله أعلم ما السبب. فالمحرك اللعين ينطفىء حالما يُشغّل.

- حسناً.. فلنستخدم السيارة الأخرى.

شعرت نادين رغم توتره البادي أنه لا يهتم حقاً إذا ما رحلوا أم لم يرحلوا، وكانت هذه الفكرة التي عنَّت على بالها غريبة.

هز بيدرو كتفيه: «فعلت ذلك ولم أفلح».

عبس بيدرو فجأة واستدار ليفتح علبة السكر، ثم سأل ليديا: «كم كانت الكمية الموجودة هنا؟»

رأت نادين عينا الفتاة تتسعان وهي تنظر إلى علبة السكر، والتفت بيدرو إلى سيرجيو، وقال بوحشية:

- صديقتك الصغيرة وضعت السكر في الوقود! لهذا لا يدور المحرك اللعين!

نظرت إليه ليديا بمرارة:

- تعني أننا عالقون هنا؟ حين يعودون سيلقون القبض علينا وكأننا فئران في مصيدة!

رد سيرجيو:

- هذا إن عادوا.. فلسنا واثقين..

قاطعته بشراسة:

- أوه.. لا.. لسنا واثقين.. لكننا قادرون على التخمين.. إنهم الشرطة بدون شك ولن يعودوا بدون سلاح ولكن الفتاة ما تزال معنا. و«دادي» لا يرغب في استعادة ابنته مليئة بالثقوب. وهذا بالتأكيد ما سنفعله إن لم يعطنا المال والضمانة للخروج من البلاد.

فكرت نادين بقلب غائر في أن الجرذان أيضاً قد تكون خطرة. فلا بيدرو ولا لينو تجادلا مع ليديا، وما من شك لدى نادين أن الإيطالية ستنفذ ما قالته بالضبط إذا دعت الحاجة. ولكنهم مخطئون في أمر

السكر، فهي لم تمسّه.

قال سيرجيو لليديا بحدة: «أقفلي عليها باب غرفتها».

وتحرك فرأت أنه يحمل مسدساً، ولكن هذا المسدس ليس كسلاح الباقين بل هو أفطس ذو منظر شرير. كسى جسدها طبقة خفيفة من العرق.. يا الله.. إذا كان هذا هو معنى إنقاذها، فهي تفضل البقاء أسيرة!

لكن ليديا رفضت:

ـ لا.. ستبقى معنا هنا بحيث نستطيع مراقبتها.. ليحذروا ء ما يطلقون النار علينا.. كم سيطول الوقت قبل وصولهم إلينا؟

لاحظت نادين أنها مذعورة، ولم تستطع إلا أن تلاحظ كيف هم جميعاً حتى لينو كانوا يتجهون إلى سيرجيو طلباً للنصيحة والقيادة

ـ هذا وقف على المدى الذي سيتقدمون به إلينا.. ربما سا هذا إذا عرفوا أننا هنا.. لذا علينا المباشرة بالاستعداد.. اصطحبي معك نادين واحضري كل مؤونة الطعام. فلا نعرف كم مسمرين هنا. لينو، بيدرو، أحضرا ما لدينا من ذخيرة.

رطبت ليديا شفتيها: «ألن تحذّر روما؟»

ـ وما الفائدة؟ لا يمكنهم نجدتنا في الوقت المناسب. لا.. فنحن وحدنا في هذه الورطة.

لاحظت نادين أن سيرجيو يتمتع بالموقف في حين أن الآخرين متوترون. أدركت فجأة أنهم كالطبل الأجوف، صوته عالٍ وداخله فا فما إن ظهرت قوة تفوق قوتهم حتى انكشفوا على حقيقتهم.

كان سيرجيو مخطئاً في تقديره بالنسبة للوقت، فقد عادت الطا بعد ساعة ونصف تماماً فراحت تدور حول المزرعة قبل أن تحط قر النهر بعيداً عن الأنظار.. فقال بيدرو ساخطاً:

ـ اللعنة.. إنهم بعيدون عن مرمى النيران! ماذا سيفعلون؟

سيجتاحوننا أم سينتظرون؟

بدا سيرجيو غير متأثر: «هذا وقف..؟»

سألت ليديا بصوت حاد مذعور: «على ماذا؟».

ـ على ما إذا كانوا من الشرطة الإيطالية لأنني أخشى أن يكون السير برادلي قد أقنع الحكومة البريطانية بأن من حق ابنته البريطانية الجنسية حماية الجيش البريطاني.

ابيضّ وجه ليديا هلعاً:

ـ أتعني فرقة الإنقاذ الخاصة؟ لكن السلطات الإيطالية لن توافق!

ـ أعتقد بعد مذبحة «موريو» أن السلطات الإيطالية ستكون شاكرة الحكومة التي ستحمل الوضع المحرج على عاتقها.. على أي حال أليس إسقاط الحكومة وإظهار فشلها هدفاً من أهداف منظمتنا؟

تساءلت نادين بحيرة عما إذا كان سيرجيو يدرك أنه بهذا يزيد من مخاوف رفاقه بدل تهدئتهم.. وكأنه يعرف كم ترعبهم مواجهة فرقة الإنقاذ الخاصة، ويتعمد التلاعب بأعصابهم ولكنها بدون شك تتخيل ما هو غير موجود.

ـ سيرجيو.. هناك قرب بستان الزيتون.. انظر!

محت كلمات لينو المتوترة كل ما يتعلق بالسبب الذي يدفع سيرجيو إلى هذا التصرف. وكان كالآخرين اهتمامه منصب على الأشباح المتحركة بين أشجار الزيتون. ماذا سيفعلون؟ الإيطاليون يعمدون إلى اقتحام المبنى مهما كان من بداخله أما البريطانيون فيميلون إلى الدبلوماسية قبل العنف.

تبين فيما بعد أن الوسيلة الأخيرة هي المعتمدة.. فقد تقدم رجل يرتدي بذلة مموهة إلى المنزل يحمل مذياعاً يدوياً، ويحيط به رجلان يحملان الرشاشات.. تكلم الرجل عبر المذياع بالإيطالية، طالباً من الخاطفين إطلاق سراح نادين ولكن لينو ردّ عليهم بإطلاق الرصاص.

وشاهدت نادين الرجال الثلاثة يرتمون أرضاً، وفي اللحظة عينها كان سيرجيو يدفعها إلى الأرض قائلاً باقتضاب:

ـ ابقي منخفضة.

أخفض رأسه أيضاً فيما كانت طلقات رشاشه تصيب جدرا المبنى.

ثم فيما بعد لم تعد نادين تتذكر بوضوح ما حدث. كانت تعاني مر الخوف ومن حرارة لا تحتمل، أما الغرفة فازداد توترها. كانت رشقات متقطعة من النيران تذكرهم بأنهم لن ينجو من المبنى أحياء.

كم مضى من الوقت، لم تكن نادين واثقة. فقد بدا أن الزمن يجرّ أقدامه الثقيلة، والخوف يستولي على كيانها. أما الموت فقد كان أقرب لها من بندقية ليديا، وسكين لينو، ولن يتردد أحد منهما في إطلاق النار عليها.

كان سيرجيو يستلقي إلى جانبها، يحرس إحدى النوافذ. حين حاولت التسلل إلى فوق، نحو غرفتها لتجتذب انتباه المنقذين، أطبقت أصابعه على معصمها ولكن الإمساك بها لم يلهه عن هدفه.

صرخت ليديا بحدة في مرحلة ما، بعدما تلقت توسلاً آخر بالاستسلام.

ـ لن تأخذونا أحياء.. ولن تسترجعوا الفتاة.. سنقتلها أولاً!

بعد ذلك بدا أن الجو خارجاً قد عمه السكون فصعد لينو إلى فوق ليتحقق من أي حركة خلف المنزل، لكن ما إن صعد حتى تصاعدت الطلقات من الخارج تجذب اهتمام الآخرين إلى مهاجميهم.

كانت نادين تواجه الدرج منبطحة على وجهها وعضلاتها متشنجة، لكن خائفة من أن تصاب برصاصة طائشة إن تحركت... لذلك كانت أول من شاهد الرجال الأربعة الذين برزوا من فوق بسلاحهم الكامل وبزتهم المموهة التي أثارت في نفسها الطمأنينة.

فيما بعد، لم تستطع أن تقول ماذا دهاها، فهي عوضاً عن البقاء صامتة، دفعت ذراع سيرجيو، فالتفت بسرعة.. وفي اللحظة نفسها صرخت ليديا بذعر:

ـ سيرجيو.. الفتاة.. اقتلها الآن!

وشاهدتها نادين ترفع سلاحها، فجلس سيرجيو وشد نادين معه في اللحظة عينها التي انفتح فيها الباب عنوة، وسمعته يتمتم:

ـ إلى الباب.. اركضي.. بسرعة.

أطاعته مذهولة فقد شاهدت العزم في عيني ليديا، وتحرك سيرجيو يرمي بنفسه بينها وبين البندقية، وسمعت نادين انفجاراً مدوياً، حملتها قوته إلى الباب، ثم التقطها الرجال ذوو البزات المموهة وهم يؤكدون لبعضهم بعضاً أنها سالمة.

كانت تصيح منتحبة: «سيرجيو.. سيرجيو..» حينما التفت حول جسمها ذراعان حبيبتان وبرز أمامها وجه أبيها وهو يتطلع إليها، وضمها إليه:

ـ آه.. يا فتاتي المسكينة!

كان غريباً فعلاً في ثيابه العسكرية، أكبر سناً وأكثر وقاراً مما تذكره، ثم تقدم رجل آخر وهو الضابط على ما يبدو يقول بصوت منخفض أن يتركا الرجال يقومون بالعمل الذي جاؤوا من أجله. مشيراً إلى اللاندروفر المنتظر وساعدها والدها لتصعد إليه.. ولكنها تطلعت من فوق كتفها إلى الوراء، كانت أصوات الطلقات النارية تتردد في أرجاء المنزل الذي أخذ الدخان الكثيف يتصاعد منه.

قال لها والدها متجهماً..

ـ لديهم أوامر باعتقالهم ويجب أن يكونوا أحياء. لكن لحسن الحظ سيحاكمون في إيطاليا، وهذا يعني أن يحصلوا على حكم قاس جداً.. ربما سجن مؤبد.. على أقل تقدير.

سجن مؤبد؟ فكرت نادين بسيرجيو وهو مسجون في زنزانة.. فالتوى شيء ما في داخلها.. لقد أنقذ حياتها، أفلا يعني ما فعله شيئاً؟ التفتت إلى والدها، تريد أن تخبره ولكنه أصمتها وضمها إليه وهو يرتجف قائلاً:

- يا حبيبتي المسكينة! لا أستطيع الانتظار حتى أحملك إلى المنزل. سنذهب معاً إلى مكان ما، وستكون لنا إجازة جيدة نضع فيها كل هذا وراءنا.

وافقت نادين مخدرة التفكير.. ترفض أن تعترف أن قسماً مما جرى لها في الأسر لن يُنتسى بسهولة. إنها الآن حرة وسالمة.. وعلى هذا يجب أن تركز أفكارها وتحاول النسيان، نسيان أي شيء آخر.

* * *